سحر توفيق

◆ 03 ◆

طعم الزيتون

◆ رواية ◆

المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

سحر توفيق

طعم الزيتون

رواية

إلى . . عادل الشرقاوى

رفيق واحد وعشرين عـامـاً فى هذا الزمن الغريب

واحد وعشرون عـامـاً

الرشد؟؟ الرحيل

هل ينظر الموتى؟ وهل يعرفون؟

دليل

تمهيد

قضيت اليوم، وكان معى خمسة: واحد حكاء، وواحد مسلٍ، وواحد حكيم، وواحد ريس، وابن الريِّس.

شاهد ابن الريِّس الجرار فقـام وركبه وأخذ يلف به بعض الوقت، ثم شاهد الحـمار فركبـه أيضاً وجعل يضرب بسـاقيه على جنبىّ الحيـوان حتى يسـرع به، يفرد ظهـره ولا يمسك بشئ ويقـول للريِّس: "هل تعمل اليـوم أبداً؟" حـاول أن يبـنى بالطوب مع البنـائين، وأخـذ يعـبث بـالطين على الدولاب ليصنع آنـية. لكن لم يبد أن العـمل اليوم سـيجدى، لذلك فـقد روى لنا الحكيم قائلاً:

لم يحدث من قبل أنى ضيعت الكلمات، ولكن فى هذه المرة ضيعتها عن عمد، وعن سبق إصرار وترصد.

تتراءى لى أشباحها فى أوقات كثيرة تلومنى، تنظر لى بحزن وعتاب، وأحيـاناً، باتهام صـارخ، حتى أفـقد مقـاومتى ولامـبالاتى، فـأحاول أن أستعيدها، أتذكرها، لكنها بكبـرياء الجريح تأبى على ذاكرتى، ثم مدفوعة بغريزة الانتـقام تحـاول تعذيبى، فتلقى إلى خـاطرى بواحدة منهـا، واحدة فقط، وتنسل البـاقيات هاربات، مختـفيات فى غـابة معقدة متـشابكة من الذكريات اللانهـائية. عبثـاً أحاول مطاردتها، فهى تخـتفى جميـعاً خلف جذوع الأشجار الضخمة، أو الأعشاب الشائكة، أو بين الوريقات الكثيفة، وتخرج لى نفس الكلمة، نفس الكلمة لا غير، وكأنها لسانها.

وأحياناً أتحـول إلى نوع من الاحساس بالوله بهذه الكـلمات وحدها، نوع من الندم على ضـيـاعـها، وأقـضى السـاعـات أبحث عنهـا بين ثنايا

الذاكرة، لكنهـا اكتسـبت من مطاردتى لها خبـرة ذكية بمسـارب الهروب، فأرجع من رحلة البحث يملؤنى اليأس والاحباط.

فـإذا حاولت الهـروب منهـا بالقراءة أجـدنى لا أقـرأ، وإنما أتوه فى المعانى.

يقول العبد الفقير إلى الله تعالى يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضـر الشربينى كان الله له ورحم سلفـه: "فالشارح لا يخـرج عن كلام الماتن كما هو عادة القاطن فى هذا الفن والطاعن، فيا له من شرح لو وضع على الجبل لتدكدك، ولو نُقش على عـامود الصوارى لتحرك، ولو مسّ به حجر لتشطر، ولو أُلقى فى اليم لتكدر".[1]

وأقول أنا العبـد الفقير إلى الله تعالى، أقـول لجدى هذا، كان الله له ورحم سلفـه وخـلفـه الذين أنا منهم: لا أجـد إلا أنـى ـ ورغم مـا قلتَ وكررتَ ـ علىَّ أن أمضى فى شرحى وقولى، ولا يوقفنى أنك قلت لى مثل هذا، فـأنت نفـسك لم يوقـفك قولك المكـرر والمعاد منذ بـدأ الشارحـون يشـرحـون إلى أن اتخـذوا أماكـنهم فوق أعـمـدة الصـحف وسـائر تلال المنشورات التى لم نعد نعرف لها أول من آخر، كما لم نعد نستطيع أن نعُدَّ أصنافها وألوانها. ولو رأيتَ من يكتبون فيها وعرفت أصنافهم وألوانهم وما يدعيه كل منهم من اتجاهات فكرية ومذاهب فنية وماهية كونية وما زاد على ذلك كـثيـر، ومنه ـ وليس كله ـ أن بعض النسـاء ادعين لأنفسـهن حرفـة الأدب، وطاولن الرجال فى مـهنة الكتابة، وجرؤن على ما يدعـيه الرجال من الجـرأة. ولو رأيت بعد كـل ذلك ما يُكتب اليـوم ويُسطر من الرجـال والنساء على السـواء ـ رغم ما قلت من حكم لم تزد شيـئاً، ولم تنقص ـ لوددت أنك لم تقل ولم تنبس. والحـقيقة أنه هـذا ـ أعنى مثل الذى قلت

١ "هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف"، الشربينى، المطبعة والمكتبة المحمودية بمصر، ص ٣.

أنت.وأفضت في شـرحه ـ هو الذى يجعل من الكلام خصـماً تود الخوض فيه، وحبيبا ترغب في وصله وتدنيـه، وأحياناً إلهاً تكفر في قدس أقداسه، وقد رغبت فيه حتى لم أبال برفقة زبانية جهنم، ورأيت أن الكلمات أحرف تتراص برفق أحياناً وبعنف أحياناً لتصنع تعاويذ الفعل.

الأحرف تعـاويذ لها فـعل عمـيق الولوج في كل الأشيـاء. الأحرف تعاويذ ساحرة للأنفس والمواد. الأحرف تعاويذ تفتح أبواب الجحيم. الاسم السرى لرع يفتح الباب الأربعين، باب المجـهول الرائع، باب المجهول الذى تكمن خلفه الفتنة، باب الغواية التى لا راد لها، باب السحر والمقدرة.

الاسم السـرى لرع من أية أحرف خلق؟ كـيف أرص الأحرف حـتى أصل إليه، وأعرفه وأعيه، وأفعله، وأرى فعله؟

عندما وصل الحـكيم إلى هذا الحد من القول، قـال الريس: " يكفى هذا يا رجال، علينا الآن أن نقوم إلى أعمالنا" .

قال الحكاء: ولكن هذا يشبه ما حكيته يوماً لبعض من كنت أجالسهم من حكاية الأخوة، كـان ذلك قبل معـرفتى بكم، وعـملى فى هذا الحقل معكم، وهذا ما سوف أحكيه لكم الآن.

اعترض الريس قائلاً: ولكن الكفـاح المفروض علينا سوف لن ينجز، والحكايا تفتح الطريق للشيطان.

قفز المسلى واقـفاً، وتقمص طريقة الريس، قـال المسلى وهو يتمطى: هو يوم من أيام الله ياريس، ولن يضيرنا إن عملنا أو عرفنا، وعندما نعرف سنعمل أفضل، دع الحكاء يقول، وليكن هذا كله من النهار.

وعندما حكى الحكاء، لم يكن يتكلم، فقد كنا نعرف الحكاية على أى حال.

يوم الجماعة الأول

كان رجل قد عـاش يوماً وقد أنجب الكثير من الأبناء، الكثيـر الكثير من الأبناء، لكن الفارق الوحيـد بين هذا الرجل والرجال الآخرين أن أبناءه أحبوه بلا حرج، أحبوه حباً كـبيراً، ولم يصبهم الحرج من ذلك يوماً، بل على العكس، كانوا فـخورين به، وبكل الطرق جربوا أن يشـهد الآخرون دلائل هذا، حتى أنهم بعد موته اجتمـعوا وقرروا أن يجعلوا أكبرهم، ذلك الذى ورث عبـاءة الوالد، نائبهم فى تقـرير الطريقة التى بهـا يبدون ذلك. وكان اجـتماعاً رهيـباً، فى الحقيـقة بدا فى أول الأمر هيناً وجمـيلاً، لكن الأمور تطورت بعد قليل، فقد كان أصغرهم قد شتل أرضه أرزاً، وكان هو الوحيد الذى يبدو أحياناً مخالفاً، وفى هذا الأمر كان مخالفاً جداً، بدا هذا واضحـاً للوهلة الأولى، حتى أن الأخ الأكـبر - وارث العـباءة - كـان يهز رأسه أسفاً وهو يعيـد ويكرر المرة تلو المرة، ومع كل هزة رأس كانت عيناه تضيقان أكـثر مما كان يبدو عليهما، ولذلك فـإن أحد الأخوة، والذى كان يبـدو على شئ من السـذاجـة والطيـبة، وهـو نفسـه كـان واسع العـينين جـاحظهمـا حـتى أنه كان يتـمكن من رؤية دائرة أوسع دائمـاً، هذا الأخ جاحظ العينين قد تساءل فى غباء:

- هل حقاً أن ضيق العينين يدل على شئ من ضيق العقل؟

كان يتمتم بذلك فى صوت خفيض، ومع ذلك فقد سمعه الأخ الذى كان جالساً بجـواره والذى كان يبدو ضخم الجثة كثـيف الشعر، بديناً، فرد عليه ساخراً:

ـ من ذا الذى يسأل عن ملامح الغباء؟

وكان الأمر الذى شدهم جميعاً وجعلهم يضيقون بأخيهم الصغير هذا أن الأب قال يوماً أن القمح أهم من الأرز، فمنه نصنع الخبز، وهو الذى يشارك فى غذائنا بالقسم الأكبر. وإذ اجتمعوا ليدللوا على حبهم لأبيهم طلب الأخوة من أخيهم أن يترك أمر الأرز هذا، قال الأخ الأصغر شاتل الأرز محتجاً:

ـ ولكنى شتلته بالفعل، وتركه يعنى خسارة كبيرة لى.

اختلفوا بشدة فى هذا الأمر، فمنهم من قال فليكمل هذه الزرعة ولا يعود لمثلها، ومنهم من قال بل اخترتم مغانم الحياة وفضلتموها على أبيكم الذى كنتم من صلبه ولولاه لما كنتم، وهؤلاء قالوا أن عليه أن يمنع الماء عن الأرز حتى يجف ويموت ثم يزرع شيئاً آخر. قال الأخ الأصغر محتجاً:

ـ لكنى لو فعلت ذلك سأخسر مالى الذى أنفقته فى هذا الزرع، ثم إننى لن أجد ما أقوت به "أولادى" فى الموسم القادم، بل ولن يكون لدى مال أشترى به بذوراً جديدة واستأجر محراثاً وغير ذلك، ثم ماذا أفعل بالحشائش الميتة فى أرضى بعد أن تجف؟

(كان يقول "أولادى"، والمعنى هنا أهل بيته.)

وفى هذا الأمر أيضاً اختلفوا، وقال بعضهم: ما أسهل أن تقلبها فى الأرض فتصبح سماداً جيداً وتفيد أرضك منها، أو تستخدمها كعلف للحيوانات، أو تبيعها فى السوق لأصحاب القمائن فهم يستخدمونها.

لكن البعض الآخر رأى غير ذلك، فعندما قلّبوا فيما قال أبوهم فهموا ما لم يفهم غيرهم. وملكة الفهم هذه كانت ذات أهمية، لأنه عن طريقها كان يمكنهم أن يجدوا الجرأة الكبرى فى دحض أية أقوال أخرى. لقد رأوا الأمر على النحو الآتى، كما قالوا: ولكن، ألم يقل أبونا أن القمح أهم من الأرز؟ ألا يعنى ذلك أنه كان يكره زراعة الأرز؟ بل وقد يعنى أيضاً أنه

كان يكره الأرز نفسه ! ثم إذا كان والدنا يكره الأرز، ألا يكون من الأفضل ألا يقلبه فى أرضه لئلا يثير ذلك غضب روح أبينا فلا يرتاح فى قبره؟ ثم إذا أطعمه لحيواناته، ألا يكون بذلك قد دخل الأرز فى بناء لحمها ولبنها الذى سيتغذى أولادنا عليه؟

وكان القول الذى انتهى إليه هؤلاء الذين يفهمون أكثر هو، كما قال أحدهم: أظن أنه من الأفضل أن نتجنب الأرز تماماً ولا يزرعه أحدنا مرة أخرى.

وكما قال آخر: أظن أنه من الأفضل أيضاً ألا نأكله.

وكما قال ثالث: ومن الأفضل والأجدى ألا نطعمه أولادنا أبداً.

وكما قال رابع، وكان هو الأخ الأكبر وارث عباءة الوالد: طيب، يجب أن ننتهى إلى ألا ندخله بيوتنا من الأصل.

وهنا، كان الرجل الوحيد الذى لم ينجب إلا البنات، وكان عنده تسع بنات فى الحقيقة ولا يفكر سوى فى أن بناته سيتزوجن من أبناء أخوته هؤلاء، كان قد وقع فى حيرة عظمى، فقد كان يحتفظ فى بيته بكمية كبيرة من الأرز لأنه كان يرغب فى المتاجرة بها ليزيد من دخله، فهو يفكر دائما فى الادخار ليتمكن من تزويج بناته، تمتم فى ما يشبه الدهشة والألم: ولكن ماذا أفعل فيما فى بيتى من الأرز؟

قال وارث العباءة بلا تردد: ارمه فوراً.

فى الحقيقة كان أبو البنات هذا يبدو أكثرهم مالاً، فهو ينتهز كل فرصة للمتاجرة، لأنه كان يفكر دائماً فى مستقبل بناته كما ذكرنا، ولذلك فقد عاد يقول: ولكن هذا سيكون فيه خسارة كبيرة!!

وانتهز أحـدهم هذه الفرصة الذهبية للاعـتراض قائلاً: ثم إن أولادنا يحبون الأرز!!

بدا الغضب على بعـض الوجوه وصاح الذى كان يبـدو أكثرهم حـباً للأب، وهو فى نفس الوقت كـان يبدو أكثرهم إيمانـاً وتقرباً إلى الله، بل وكان وجهـه يتحلى بزبيبة فى جـبينه، وهو الذى كانوا يقولـون أنه أكثرهم حلماً، وفى الحـقيـقة أن هذا كله كان ادعـاء ورياء، ولذلك فقـد كان هو السـاهى الذى تحـته دواهى، وكـان فى نفس الوقت أيضـاً هو الثـالث فى ترتيب هؤلاء الأخـوة، صاح هذا الساهى: وهـل حب أولادك الأرز يقارن بإقلاق روح أبينا؟ أنت لا تحب أبانا فيما يبدو!!

كـان هذا أسوأ مـا يمكن قوله، فلمـاذا يقف اليـوم بينهم إذا لـم يكن يحب أباه؟ وكـان الســاهى هذا يعـرف ذلك أيضـاً، إلا أنـه فكر هكذا: الأفضـل أن أريه عواقب مـا يقول فـلا يعود لمثلهـا أبداً، وهذا ما حـدث بالفعل، فقـد قال أبو البنات متراجعاً: ولكنك تعـرف أننى أحبه ولا أتمنى شيئاً قدر أن يرتاح فى قبره.

قال الساهى الذى تحته دواهى بصوت قواه الغضب: قل يرحمه الله.

قال أبو البنات منفعلاً وهو ينظر حوله كأنما قد ضبط متلبساً بالسرقة: يرحمه الله.

وهنا قرر الأخ الأكـبر أن يحزم هذا الأمر فـقال: إذن ارم هذا الأرز، ولا تعد لمثل هذا الحديث مرة أخرى.

لقد كان الأخ الأكبر فى الحقيقة لا يجد مانعاً فى أن يتزوج أحد أبنائه من إحدى بنات أخيـه هذا، أما الآخرون فقد أخـذوا ينظرون فى اتجاهات مختلفـة، يتفادى أحدهم أن تلتقـى عيناه بعينى أخيه، فـقد كان الأرز فى بيوتهم جمـيعاً، وقد اتخـذ الحديث وجهة لم يقصـدها أحد منهم، ولكن

اللئيم فيهم رأى مـخرجاً سريعاً فقال بذكاء: لم نقل مـاذا يفعل أصغرنا بما فى حقله من أرز؟

فى الحقـيقة كانت هذه قـشة رائعة يجب التـمسك بها فوراً، فـأسرع الأكبـر قائلاً فى حـزم وقوة من لا يخاف لومـة لائم: بل قلنا، ولا داعى للكثير من النقاش فيما لا يفيد.

لكن الأخ الأصغر فيما يبدو لم يفـهم بما يكفى، فقد كان مخلصاً لما يقول، وقـال مبـدياً اليأس: هل تعون مـا تطالبوننى به؟ إنكـم تطلبون أن أموت وأهلى جوعاً!

قال الأخ البدين ضخم الجـثة، وكان متأثراً دائما بضخامـته هذه فبدا ساخـراً فى حديثه، رغم صـوته الأجش الغليظ: لا أحد يموت جـوعاً، ثم تأكد أنك حـين ترضى أباك الذى أوصانا الله بالإحـسان إليه والبـر به فلن ينساك الله أبداً.

عند هذه الكلمات التى بدت ساخرة فى البداية، ثم اتجهت فى نصفها الثانى إلى ما يشبه الصدق والحنان، بـدأ الأخ الأصغر يتنفس بارتياح، فقد عنيت هذه الكلمـات الكثير، إلا أنه، ولمجـرد التأكـد، قال متـسائلاً: هل يعنى ذلك أنكم ستعينـوننى جميعاً على مواجهـة هذا الأمر وستتكفلون بى وببيتى طوال هذا الموسم، وبزراعة أرضى فى الموسم القادم؟

لم يكن هذا ما قـصده ضخم الجثة هذا على الإطـلاق، ولذلك فقد تلجلج، والجمـيع فى الحقيـقة وقعـوا فى نفس الحيرة، فـسكتوا ولم ينبس أحدهم خوفاً من أن يقع فى نفس الخطأ. وانبـرى بعضهم ينظر إلى البدين شذراً، فـقد أوقعـهم فى هذا المأزق. أما الفقـير كثـير العيـال ذو الجلباب الأزرق القديم والذى كان ينتظر انتهاء هذه المناقشة ليسأل على استحياء عن عباءة أبيه، وهـو الذى كان يعلم تماما أنها من حق الكبير فـيهم، لكنه كان

يعرف أيضاً أن هذا الكبير لديه غيرها، فأمل لو يعطيه إياها، وخاصة أنها عباءة قديمة، وربما تكون أقل جمالا من عباءات الكبير التى صُنعت فى زمن أقرب، كما أنه ليس بحاجة إليها مثله. كان يحلم بها لتقيه البرد القارس فى ليالى الشتاء، وقد يغطى بها بعض أولاده فى الليل فتكون مصدر دفء لأهل بيته جميعاً، همس ذلك الفقير متسائلاً وكأنما كان يعد ما فى بيته من الطعام: هل نستطيع أن نضمن له ذلك فعلاً؟

قال اللئيم، والذى كان بجواره، هامساً له: ولماذا نضمن له ذلك؟ هل ذنبنا أنه خالف ما درج عليه أبونا وما أوصانا به؟

لقد كان الصمت الشامل ما جعل الكلمة الهامسة تسمع وكأنها أطلقت فى واد، وربما أن صوته ذا النبرة الخشنة لم يكن ممكناً له ألا يسمع، ما علينا من الأسباب، لكن النتيجة هى أن هذه الكلمة كانت هى المنقذ الحقيقى للأخ الأكبر وارث العباءة والذى قال فى إجابة الأخ الأصغر: هذا خطؤك منذ البداية، وعليك أن تتحمل تبعات هذا الخطأ.

هز الأصغر كتفيه، لقد كان دائما ولداً عاقاً، ودائماً كان مخالفاً للجماعة، وخاصة إذا لم يعجبه الكلام، وفى الحقيقة أنه نادراً ما كان يعجبه أى كلام، وكان أبوهم دائماً يقول عنه أنه لن يفلح أبداً، وقد ثبت الآن صدق هذا القول حين قال مبدياً لامبالاة مدهشة: أظنكم تعرفون جميعاً أنه بئس ما تطالبوننى به، وأننى لست بمستطيع أن أتبعه، ولن أقتل أولادى جوعاً بسبب أرز أو غيره.

بالطبع كان هذا أسوأ ما يمكن أن يصلوا إليه من نتيجة، لقد كان أملهم أن يجتمعوا على كلمة واحدة، قال أحدهم، وكان به بعض حكمة: أنتم قد بعدتم كثيراً، وليس هذا ما قصده أبونا.

لقد كانوا بانتظار أى منقذ من هذا الموقف المعقـد، حتى أنهم استعدوا لقبـول حكم من لا يقبلون حكمه فى أى وقت آخـر، نظروا ناحيتـه، كان يقف وفى وجهه نظرة جاهلة حزينة، كـان يبدو أقلهم حجماً ووزناً، رأسه صلعاء وعيناه تبدوان مطفـأتين، فقدتا البريق الذى تتمتع به عـينا الصغير، قال وهو يدير هاتين العينين الصغـيرتين فيهم جميعاً: لم يقـصد أبونا شيئاً من كل هذا.

قال البدين ضخم الجثة وقـد دفع كرشه أماماً ودفع بصوته الأجش فى آذان الآخرين كل الآخرين: وماذا كان قصده يا فالح؟ إن كنت تعرف !!

نظر الحكيم مطفأ العينين إلى ذى الكرش قائلاً: إن كنت تذكر أنه قال فقط أن القمح أهم من الأرز، وما قـال أبداً أن الأرز كريه أو قبيح أو سام أو ضار، أو نـعته بـأى وصف آخر، ثم أنه لم يقل إلا أن القـمح أهم من الأرز، وهذا لا يعنى حتى أن الأرز غير هام، بل يمكن أن يكون هاماً أيضاً ولكن مرتبته تلى القمح فى الأهمية.

ربما هنا كان يمكن أن ينتـهى الأمر على خير، وتكون النهاية السـعيدة للقصـة، لكن يبدو أن هذا لم يكـن مرغوباً فـيه من بعـضهم، لأن وارث العباءة احمـر وجهه، وقطب البدين حاجبيـه، وربما رمى بنظرة ذات مغزى إلى اللئيم، بينما انتفخت أوداج الـساهى وهو يحاول أن يقطب جبينه رغم الزبيبة التى تجعل ذلك صعباً، التقط اللئـيم الخيط فيما يبدو، فانبرى قائلا: ما هذا؟ مـاهذا؟ هو لم يقل أبداً أن القمح أهم من الأرز، بل قـال القمح أفضل من الأرز ، وعندما تأتى المسائل لوضع المفـاضلة فغير المفضل يكون مكروهاً، وهذا بديهى.

كان الفـارع الأصلع الرأس صامتاً حـتى هذه اللحظة، لكنه انجرَّ الآن إلى الحديث. قـال الفارع الأصلع ذو الحـدقتين الواسعـتين: غير صـحيح بالطبع، لقد قال القمح أهم ولـم يقل أفضل.

قال الغبى ذو العينين الجاحظتين: وما الفرق ياعالم؟ ما الفرق إن كان أفضل أو أهم؟

قـال الحكيم ذو العينين المطفـأتين حـزيناً وآسفـاً: كيف تقـول ذلك؟ الفارق كبـير جداً، أكبر مما تتصـور، أهم أبسط من أفضل ولن توصلنا إلى الكثـيـر من المشـاكل، ولكنى أرى أنـكم تريدون المشـاكل، ترغـبـون فى التعقيد، ولـم يعد أبوكم يرحمه الله موجوداً حتى يوقفكم كـما كان يفعل قبلاً، فجرتم وانتهى.

عند هذا الحد وقف الأصغـر ونظر لهم جميعاً شـاملاً بنظرته كل ما فى القاعـة الفسيحـة من بيت أخيهم الأكـبر ـ وارث العباءة ـ حـيث كانوا يجتمعون، ثم بلا كلمة، غادر المكان.

أبو البنات

توقف الحكاء ليأخذ نفساً طويلاً، فانبرى المسلى يتحدث.

قال المسلى موضحاً بعض ما غمض:

لم يكن أبو البنات يرغب فيهن عندما تزوج، بل كان راغباً ـ كما عنا جميع الأسوياء من البشر ـ بإنجاب البنين، ولكن عروسه أنجبت فى أول أعوامها توأماً، بنتين، فلما انتهى نفاسها اجتمعت عليها نساء القرية كل تدلى بوصفتها السحرية من أجل إنجاب الذكور، وعندما اتبعت بعض النصائح جاءت فى العام التالى بتوأم آخر، بنتين، فلما انتهت من نفاسها الثانى اجتمعت نساء القرية مرة أخرى يتشاجرن، فمن اتبعت وصفتها ثبت فشلها، ومن لم تتبع وصفتها ألقت عليها باللوم لأنها لم تولها ثقة فى هذا الأمر الهام، فى هذه المرة اتبعت بعض الوصفات الأخرى، فلما دار العام ولدت توأماً، بنتين للمرة الثالثة، وفى العام الرابع جاءت ببنتين للمرة الرابعة وأصبح لدى هذه الأسرة ثمانى بنات فى أربعة أعوام، وهى كارثة لم تحدث لأحد فى هذه القرية من قبل.

عندما انتهت من نفاسها الرابع قالت أم البنات لزوجها: لقد جربت كل الوصفات التى لدى نساء هذه القرية، ولم يبق لدى وسيلة أخرى، وأخشى إن أنا حملت مرة أخرى أن آتى ببنتين فيصبح لدينا عشر بنات وهذا لا يحتمل، فلتذهب إلى شيخ القرية المجاورة، فقد يكون لديه ما يقوله لك.

كانت ثمانى بنات بالفعل شيئاً لا يحتمل، لم يكن لديه ما يقوله على أية حال، سوى أن هذا هو ما قدره له الله، لكن السعى خير من القعود

على كل الأحوال، ولم يكن هناك ما يمكن فعله غير ما أشارت به المرآة. لو أن مشورة المرأة كانت خيراً أبداً لما كان هذا هو الحال، فقد أشارت النساء بكل الطرق ولم ينتج سوى ثمانى بنات، ولكن ما باليد حيلة.

فى الصباح الباكر، وقبل أن يخرج الرجال إلى الحقول، كان أبو البنات يتخذ طريقه إلى بيت الشيخ حاملاً خُرجاً مليئا بالخبز الطازج، طرق باب الشيخ المبارك، فلما فتح له ورآه عرفه، قال له تاركاً فسحة فى مدخل الباب: تفضل.

فلما جلسا، ظل الشيخ ساكناً، وأطرق أبو البنات، ثم متشجعاً مد يده بالخرج الذى كان يخفيه بين طيات ثوبه قائلاً بصوت خافت: النبى قبل الهدية، أم البنات تُصبح عليك، وقد صنعت هذا الخبز بيدها من أجلك هذا الصباح.

قال الشيخ وهو يتناول الخرج: هدية مقبولة، أكرمك الله وأم البنات.

مد الشيخ يده تحت الفراش ليقرب موقداً صغيراً، فأوقده، ثم مد يده تحت الفراش مرة أخرى ليخرج صينية رصت عليها أكواب وآنية وما إلى ذلك مما يلزم لصنع الشاى.

عندما رشف أبو البنات من كوبه انطلق لسانه فجأة كأنما كان مربوطاً بحبل وانفلت: امرأتى لاشئ آخذه عليها، هى طيبة، ومطيعة، وتعمل بلا كلل، والخير جرى فى بيتى منذ دخولها، حقلى ينتج أفضل، ودواجن بيتى تبيض وتفرخ، والحمائم تنتج بانتظام، حتى جاموستى اعتادت عليها وأصبحت لا تقبل يداً تلمس ضرعها سوى يدها، فلما تحلبها تدر لبناً طيباً، وتعمل المرأة على انتاج الجبن والزبد منه بانتظام. لا أستطيع أن أشكو منها، وحتى من هذا الاتجاه فهى ولادة، تأتى بتوأم كل عام، هذا أيضاً طيب، إلا أنها لا تلد لى إلا إناثاً، ولأنها ولادة، فقد أتت كما ولابد

أنك تعلم بثمانى إناث فى أربعة سنين عدداً، قالوا لى طلقها وانظر امرأة أخرى، لكنى لا أشكو منها، وأخشى إن أنا اتخذت امرأة أخرى أن أدخل قدم شؤم إلى دارى. كان أبىْ دائماً يقول النساء نوعان، امرأة تخطو إلى دارك فيدخل الخير بدخولها، وامرأة لو دخلت داراً كانت شؤماً على أهلها، خربتها، وضيعت من فيها، فاتخذوا لأنفسكم قدم الخير، وإذا عرفت امرأتك قدم خير فلا تتركها. وأنا عرفت أن امرأتى قدم خير، فماذا أفعل؟ قالوا لى أنك قد تعرف لى مخرجاً.

لم يتكلم الشيخ، وإنما قام من مجلسه واتجه نحو الغرب حيث الجدار الخالى من الأبواب، فتح دولاباً فى الجدار، ثم عاد بعد لحظة وفى يده حُقٌ صغير، قدمه له، فسأله: أهو لى أم لامرأتى؟

نظر إليه بعينين غائرتين ووجه أبيض غضنته السنون، قال بهدوء: أما تعبت امرأتك؟

تعبت؟ هذا قليل على ما مرت به من أجل أن تأتى ولو بذكر واحد، قبل أن يجيب على سؤال الشيخ كان هذا قد وقف مدلياً المسبحة التى بيساره جانباً، ومادّاً يده بالسلام، اتجه إلى الباب خارجاً من دار الشيخ، أغلق الباب خلفه تاركاً الشيخ المبارك يعود إلى ما كان فيه، أياً ما كان. ماعلينا من هذا على أية حال، لكن أبو البنات انطلق إلى بيته، مخفياً الحُق فى ثنايا جلبابه، فرحاً بما آتاه، مصدقاً لما سوف يجنيه.

وما أن مرت أشهر قليلة، حتى ظهر الحمل للمرة الخامسة، وفى هذه المرة ولدت المرأة بنتاً واحدة، واعتبر الجميع هذا نجاحاً، وفرحوا لأن الرقم عشرة قد تأخر بعض الشئ، لكن هذا الرقم قد تأخر فى الحقيقة إلى أجل غير مسمىً، فلم تنجب المرأة بعدها ولم تحمل أبداً.

فلمـا مرت بضع سنوات دون أن تحـمل امرأته مرة أخـرى، فكر أبو البنات أن عليه أن يرضى بهـذا الامتحـان العسير من الله تعـالى، وقال إن المال والبنون زينة الحياة الـدنيا، فإذا حرمه الله من البنين فـعليه بالأخرى، المال.

وقال فى نفـسه: ليست البـنات شراً فى كل الأحوال، فـإذا أحسنت تربيتـهن فسـيكن مصدر خـير ورزق كثـير، ومن الممكن أن يسـاعدن فى الكثير.

ولكنه عاد واعترف لنفســه: إن كل ما أتعب من أجل غرسه فى بناتى لن يكون إلا كزراعة أرض الغير، لا ينالك منها خـير، فستتزوج كل منهن ويكون خيرها كله لزوجها وأسرة زوجها.

وعاد يقول لـنفسه: أما إذا تمكنت من المال فـيمكننى أن أقلب الآية، وأجعل رجالهن فى خدمتى، بل وأجمعهم فى دارى، ويكون لى من البنين مثل ما لى من البنات.

ولما كبرت البنات واستدارت ملامحهن، فكر أبو البنات فى أن بناته لا يوجد فى البلدة كلها مثل أى منهن فى الجمال ولا فى المقدرة على العمل، وأن كلاً منهن تسوى وزنها ذهباً. جمـيلات كن كأمهن، عاملات ماهرات أيضاً ككل نساء البلدة أو معظمهن، بارعات فى ما يعملن، متقنات فى كل ما ينتـجن. قال أن خطتـه لن تكتمل إلا عندمـا يتخيـر بنفســه أزواجهن، وعليهن سوف يعتمد فى المـملكة الصغيرة التى يطمع فى أن يكون ملكها، ولهذا فكر أن عليه أن يتخيـر لكل منهن من يناسبها من أبناء أخوته، ولماذا لا يتخير بنفسه؟ لا ينقصه المال اللازم لشوارهن، وكل من فى البلدة يتمنى إحداهن لأحد أبنائه، ففيـهن كل المميزات التى يطمح إليها أى أب وأية أم لابنهـما. وهو يرغب فى أن يزوج كـلاً منهن من أحد أبناء أخـوته، وهم كثيرون، ولابد أنه واجد فيهم من يصلح لكل واحدة، هكذا فكر.

كانت البنت الكبرى مـاهرة فى الطبيخ، تخبز أفضل الخـبز وأجوده، يضربون بخـبزها المثل فى القـرية كلها، ويحلفون بفطـائرها اللذيذة، كأن يقول أحـدهم فى معرض كلامـه مثلاً: "أقسم بفـطائر البنت الكبرى لأبى البنات".

قال: هذه الطباخة تصلح زوجة لابن أخـى البدين ذى الشعر الكثيف فى كل مكان، رأسه وذقنه وشاربه وصـدره وذراعيه وساقيه ومـاخفى كان أعظم، هو غنى ويريد لابنه زوجة تطعمـه أفضل أصناف الطعام وأحلاها، هذه تكون له وتناسبـه، يهتم بكرشه ويريد لابنه زوجة أهم مـؤهلاتها هى هذه.

وكانت الابنة الثـانية تحب النظافة، مـغرمة بغسل الأرض والشـبابيك والثـياب وكل ما هـو قابل للغـسيل، تأتى بنفـسهـا بالزيت والمادة القلوية وتخلط ذلك بالدقيق وتصنع صابوناً، تصبه فى قالب ثم تقوم بتقطيعه قطعاً مناسبة وتتركها لتجف. (غاسلة الهم)

وكانت الابنة الثـالثة بارعة فى الغـزل، تحلق للأغنام صوفهـا وتغسله وتكرده ثم تغزله فى خـيوط رقيقـة متينة تبدو فى رقـتها كخـيوط الحرير. (الغازلة)

وكانت الابنة الرابعة تنسج بمهارة، تجلس على النول ساعات وساعات دون أن تمل، تصبغ خيوط الغزل بنفسها بألوان زرعتها فى ركن من الأرض خـصصـه لها والدها، وتصنع منـها نسـيجـاً رائع الألوان مدمك الغـرز. (النساجة)

وكانت الابنة الخامسة حائكة ماهرة، تخـيط الثياب البديعة لأخواتها، وترضى أذواقهن جميعاً. (الحائكة)

قال هؤلاء الثلاث لابد أن يكن فى بيت واحد، فكل منهن تعمل ما تحتاجه الأخرى، قال هن يصلحن لأبناء الأخ الأكبر، يقاربنهم فى السن، ويوافقنهم فى المشارب، فهؤلاء يحبون العمل، وأحدهم يملك متجراً يمكن أن يبيع فيه انتاجهن، والآخر يرحل للتجارة بين الحين والآخر بين القرى، والثالث يعمل وزّاناً للحبوب، ويكسب كثيرا من وزن الحبوب لأهل القرية والقرى المجاورة، ويتوسط بينهم وبين التجار، هذا أيضاً مناسب نوعاً.

وكانت الابنة السادسة مغرمة بالدواجن والحمائم، تربيها وتعتنى بها، تجمع البيض كل صباح فى سلتها وتهيئ للدجاجات كل السبل للرقاد على البيض، تضع للحمائم القدور الفخارية وتصنع منها بيوتاً معلقة على جدار الدار خشية الحشرات والزواحف، وتزين لهم التزاوج بكل السبل، ربما أكسبها ذلك خبرة فى الحب، وربما كان كل ما وراءه أن تجمع ما أنتجت وتذهب إلى السوق بالبيض والزغاليل. (الكلافة)

وكانت الابنة السابعة تحب الجاموسة، تغسلها يومياً وتحلبها، تذهب معها إلى الحقل وتعود، تصنع الزبد والجبن والسمن، وتخزن الجبن بمهارة، أخذت فى البداية خميرة الجبن من جدتها التى قالت لها:

ـ هذه الخميرة أقدم مما تتخيلين، كل امرأة تأخذ الخميرة من أمها أو جدتها وتضيف عليها منذ أجيال وأجيال لا أعرف عددها، وكلما كانت الخميرة أقدم كانت أجود. (اللبانة)

وكانت الابنة الثامنة تحسن التزين والتكحل، تضفر شعرها ضفائر طويلة وتعقصها بشكل جميل ولا تتركها ملقاة على كتفيها فى إهمال ككل البنات، ثم اكتسبت مهارة فى إعداد بعض أنواع الروائح تستخرجها من جذور الكافور وبعض أنواع الزهور، وأتت بالكحل تطحنه وتخلطه ببعض الدهن والششم المطحون وصنعت من ذلك كحلاً بديعاً إذا وضعته امرأة فى عينيها دمعت للحظتها فينتشر على جفنيها ملقياً ظلاً فاتناً. (العايقة)

وكانت الابنة التاسعة والصغرى تحب الورق والقلم، عبثاً قال لها هذا لا يسمن ولا يغنى من جوع، لكنها لم تعرف إلاهما، قال: هذه همى، ماذا أفعل بها؟ من يتزوج مثل هذه؟ لا عمل لها إلا أن تقرأ وتخط، لا أحب أن أزوج إحداهن من أحد أبناء أخى جاحظ العينين، أذكر أنه طلبها يوما لواحد منهم، لكنى اليوم لا أرى أحدهم يناسبنى، فلا يبدو أن أحدا منهم يرضى بالعيش فى مملكتى، والانطواء تحت جناحى بيتى، ثم من قال أن أحدهم يرضى بها، لئن كانوا يغرمون بالعلم والمعرفة إلا أن الواحد فيهم حين يبحث عن الزوجة فلن يحب إلا امرأة تطبخ له وتغسل ثيابه وتنظف بيته وترعى حيواناته ثم أولاده، فكر كثيراً ثم قال: هذه هى أعمال الخدمة التى تولد من أجلها النساء، أما أعمال الفكر والحرفة فهى للرجال، فإذا سطت النساء على أعمال الفكر والحرفة فماذا يفعل الرجال؟ هل يكونون خدماً لنسائهم؟ هذه تكون أعجوبة الأعاجيب ونادرة الزمان، لا، لن تصلح هذه البنت كزوجة، إلا أن أكسر لها رأسها حتى تترك هذا الأمر. (الوراقة)

فى صباح يوم الاثنين من كل أسبوع تخرج البنات الثمانية إلى السوق، تجلس كل واحدة فى ركنها مع أبناء حرفتها، تجلس الأولى (الطباخة) وقد وضعت أمامها موقداً وآنية مليئة بالزيت وبجوارها آنية مليئة بالعسل المصنوع من السكر والماء والليمون، وآنية ثالثة مليئة بالعجين اللين المتخمر، تبيع الزلابية لرواد السوق الذين عرفوا مهارتها فأصبحوا يتكالبون على زلابيتها اللذيذة الطازجة.

وتجلس الثانية (الغسالة) فى ركن من السوق تباع فيه أنواع الصابون وأدوات النظافة، تضع انتاجها من الصابون أمامها.

وتجلس الثالثة والرابعة والخامسة معاً (الغازلة والنساجة والحائكة)، يبعن ما أنتجن فى أسبوع من خيوط الغزل وقطع النسيج والمناديل المشغولة وثياب الأطفال المحيكة الملونة.

أما السادسة والسابعة (الكلافة واللبانة) فتجلسان وأمامهما البيض والزغاليل والجبن والزبد والمش.

وأخيراً تمكنت الإبنة الثامنة (العايقة) من الجلوس في السوق تعرض إنتاجها من العطور والكحل، بعد وقت طويل قضته فى التجربة إلى أن تمكنت من صناعتها بشكل جيد.

قال أبوهن فى نفسه ذات مرة وهو يطوف بالسوق بعد أن انتهى من البيع واطمأن على كل منهن: هؤلاء البنات رائعات، ينتجن ويدخلن مالاً طيباً إلى بيتى، لم تبق إلا هذه الخائبة التى لابد لها من صنعة.

قال لها ذات يوم وهى جالسة إلى الطبلية منحنية على أوراقها: أما من شئ مفيد يمكن فعله بهذه الأوراق الكثيرة؟

رفعت الوراقة رأسها، ولم تفهم تماماً، قالت: ماذا تعنى يا والدى؟

قال يتذكر: عندما كنت صغيراً، كانت أمى تصنع لنا عرائس من الورق، تصنع قرطاساً كهذا - كان قد سحب ورقة من تحت يدها ولفها - ثم تقطع قرب قمته فتحتين متقابلتين كهاتين - قطع الفتحتين - ثم تأتى بورقة أخرى وتصنع منها اسطوانة تنقسم إلى قسمين عند طرفها العلوى كهذه - وصنع الاسطوانة بورقة أخرى وقسم طرفها العلوى إلى قسمين - ثم تدخلها هكذا فى الفتحتين فتتحركان كالذراعين، وكنا نقوم بتلوين هذه العرائس فتبدو كلعبة جميلة.

فى كل هذا كانت الفتاة يصيبها الهلع على ورقتيها وإن لم تستطع ملاحقته فى سرعة تصرفه بهما، بكت قائلة: أعدك يا والدى أن أفكر فى طريقة أكون بها ذات فائدة للبيت كأخواتى، ولكن أرجوك لا تفسد أوراقى، فليست من أجل مثل هذا.

فكر لنفسه قائلاً: ربما هذه إن تتزوج وترحل إلى بيت زوجها تريحنى من التفكير فيما يكون عليه الآتى من أيامها.

ولكنه عـاد وقال: كيف لـى أن أزوجها قـبل أخواتهـا؟ لئن تزوجت قبلهن لكان ذلك هولاً عظيماً.

وتنهد: آه يابنتى، أنت همى.

المؤامرة

توقف المسلى متململاً، فالحكاية طويلة، والنهار لم يمض منه إلا القليل، ونسى الريس فى غمرة الحكاية دوره، أو تناساه، والتقط الحكاء الخيط مكملاً:

يقول الشيخ يوسف بن محمد بن خضر الشربينى كان الله له ورحم سلفه وخلفه الذين أنا منهم: فلا يختلف الشارح عن الماتن كعادة القاطن فى هذا الفن والطاعن.

وأقول رغم الذى قال الشيخ الشربينى أننى أجد نفسى على اضطرار لأخذ مذهب الشارح حتى لو لم أختلف عن الماتن، فالمتن لى، والشرح بيدى، وأنا له..

بعد أن خرج الصغير شاتل الأرز فى يوم الجماعة الأول تاركاً اخوته فى بيت الأخ الأكبر وارث العباءة، بهت الجميع، ولم يقدر أحد منهم أن يكمل، لقد فكر كل منهم أن الجماعة أُجهضت فى يومها الأول، وأنها فشلت فى أمرها الأول، وأن أحداً من الأخوة لم يتمكن من سند الحكاية حتى النهاية، فكر وارث العباءة أنه لن يتمكن من حُكم أخوته هؤلاء بعد اليوم، وفكر الساهى أنه لن يتمكن من وضع يده على أرض أوسع من أرضه، وفكر أبو البنات أنه لن يقدر أن يتاجر فى أرزه إلا بعيداً عن البلدة أو فى "السر"، (كانت هذه بداية السوق السوداء بهذه البلدة).

وأما الفقير فقد فكر أنه لن يتمكن من الحديث مع أخيه الأكبر فى مسألة العباءة، فقد اتجه الحديث وجهة جافة، وأصبح الطلب صعباً أيا كان نوعه.

بدأ الأخوة يخرجون واحداً بعـد الآخر حتى لم يبق مع وارث العباءة إلا الفقير والساهى الذى تحته دواهي والبـدين، قال الساهى للفقير: لماذا لا تذهب أنت أيضاً؟ ألا تنتظرك امرأتك؟

رد الفقـير بمسكنة: لم تعد امـرأتى تنتظرنى، لقد يئسـت من عودتى يوماً محـملاً بما يلزم حياتها وحـياة أولادها، هذه المرأة طيبة فى الحقـيقة، لكنها تعبت، تعمل بلا كلل من طلعة الشمس وحتى آخر اليوم، ولا عائد هناك.

ابتسم وارث العباءة بطيبـة قائلا: طيب، تعال اجلس على أى حال، أقول لك؟ جهز لنا العدة.

تحلقوا أربعـتهم حول الراكـية، وأحضر الفـقير بعض القـوالح وأوقد النار، وبدءوا يدخنون الجوزة، وبدأت تهدأ النفوس.

قال الفقير محاذرا: ماذا تظنه يفعل؟

قال وارث العباءة: من؟ آه، تقصد شاتل الأرز؟ لا أظنه يفعل شيئا.

قال الساهى: لابد من إيقاف هذا الأرز عن النمو على أية حال!!

قال الأكبر: هذه فكرة لا بأس بها، غيـر أننى ما كنت أرجو استخدام العنف أبدا.

قال الساهى: يا أخى، لا تأخذنك فى الحق لومة لائم.

ساد الهدوء لحظات، بـينما كان وارث العباءة يأخـذ نفساً عمـيقاً من الجوزة، والـفقيـر يزيد من الجمـرات، نفث وارث العـباءة الدخان قـائلا: ليست هذه بداية مـبشرة لجـماعتنا، فمـا أن يموت الوالد حتى نبدأ بالفـرقة والتحزب، هذا ليس طيباً.

قال البدين: تحزب؟ أى تحزب؟ يا أخى ليس فى حزبه إلا هو وحده.

ـ أنت تظن هذا، كان اجتماعنا اليوم فى دارى وأنا أنظر إلى الأخوة كنت أرى العيون تتقلب.

قال الساهى: ما أسهل هذا، ليس صعباً عدل ما انقلب، وسيعتدل كل شئ، المهم أن تكون القدوة، وأن يراك الجميع فى أحسن صورة فيلتفوا حولك.

مس وترا حساسا: ها أنت تعود إلى الكلمات الطرشة، وماذا يعيب صورتى فى نظرك؟

تنحنح الساهى: لا أقصد أن بك عيبا حاشا لله، بل أنت فى أكمل صورة (هذا ضرب على أكثر الأوتار حساسية عند الكبار من الأخوة) ولكن هناك أشياء إن تمتلكها تمتلك الآخرين.

ـ ها أنت تعود إلى وصفى بالنقص، اسمع، لقد انتهى هذا الاجتماع تواً، وما عادت بى قدرة على المزيد من الشجار، فانتبه أنت أيضا من هذا الحديث.

تدخل البدين ضاحكا: هذا أطرش الكلام فلا تؤاخذه، ولكن يبدو أن لديه شيئا، فاستمع إليه.

تنهد الأكبر متململاً: قل.

قال الساهى الذى تحته دواهى: هو سؤال بسيط، أين زبيبتك؟

فتح وارث العباءة عينيه عن آخرهما: ماذا؟

ـ زبيبتك، الزبيبة.

ـ وما هذه؟

ضحك البدين حتى كاد أن يستلقي: كهذه التي في جبهة أخيك، إنه يريدنا أن نصبح مثله.

لم يبتسم الآخران، وتكلم الساهي بإصرار: إن التمسك بالشعائر يضع الجميع في طاعتنا.

قال وارث العباءة: ولكنني فعلا متمسك بالشعائر، وأقيم الصلوات، وأؤم الجمعة في الزاوية بنفسي، أنت تعرف هذا تماما.

ـ فأين زبيبتك؟

ـ لم تتكون لي زبيبة يا أخي، ثم لماذا. . .

قاطعه البدين وهو سادر في ضحكه: يا وارث العباءة، فلتعرف أنه ما أسهل تكون الكالو الدماغي بتكرار بطح الجبهة أرضا أثناء السجود.

ـ بطح؟

ـ نعم، أنت تضعها عند السجود، عليك أن تبطحها.

ـ أنتما قد جننتما.

قال الساهي: أخي هذا يعبر بطريقة ساخرة، ولكن لك أن تعلم أن هذا من أهم المظاهر الإيمانية في عصرنا.

سكتوا لحظات، وظل الفقير يقلب الجمر ساكنا، وأخيراً نطق قائلاً: يا أخي الأكبر، أقول لك الحقيقة، إن المظاهر لا تهم كثيراً.

قال الساهي وكأنما قد انتبه فجأة: أنت، ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تذهب لبيتك؟

قال وارث العباءة: دعه، وجوده لا يضير.

ـ كيف؟ ها هو يتدخل بالنصيحة!!

ـ ولم لا نستمع إليه؟

ـ نستمع إليه؟ ولم لا نستمع لشاتل الأرز؟ كل هذا عبث.

قال وارث العباءة: ألا تخلط الأمور هكذا؟

قال الساهى: بل ربما أنت الذى لا تقدر المسائل حق قدرها.

- كيف تجرؤ؟

تدخل البدين فوراً: هذا الخطاب لا يصلح الآن، علينا أن نكون أكبر من ذلك لكى نفكر بشكل أفضل.

- أنا كبير بالفعل، لا تدفعانى إلى تصرفات لا أريدها الآن.

التفت البدين إلى الفقير: لم لا تذهب الآن إلى بيتى؟ وتطلب من امرأتى أن تعطيك بعض الخبز والجبن، قل لها أننى أمرت بذلك، ثم اذهب بما تعطيك إلى أولادك.

قال وارث العباءة: ولماذا؟ هو فى بيتى يا أخى، فليأخذ ما يشاء من هنا!!

نقل الفقير بصره بين الأخوين الكبيرين، ولم ينبس، فقط ابتلع ريقاً جافاً، واستدار ليخرج.

ناداه الأكبر: هل سمعت ما قلت لك؟

لم يرد الفقير وسار مبتعداً، هم وارث العباءة أن يقوم ليلحق به، لكن البدين أمسك بذراعه ليبقيه قائلاً: لا تهتم كثيراً، سنرضيه فى وقت آخر، سأمر عليه بنفسى فى آخر الليلة، المهم الآن أن نصل إلى قرار.

جلس وارث العباءة، وقال باستسلام: ماذا تبغيان؟

قال الساهى: نريد منك مظهر الأخ الأكبر.

وقال البدين: ومخبره أيضا!!

- ومسلكه كذلك!

وعاد يسأل: لم أفهم شيئاً، ماذا تريدان؟

قال الساهى: علينا أن نتفق بداية على أن الوالد رحمه الله، ولا يجوز أن نتحدث عنه بغير ذلك.

قال الأكبر: هذا بديهى.

قال البدين: ثم علينا أن نتفق على أن ما قاله الوالد ـ رحمه الله ـ وما فعله هو قدوة لنا فى كل تصرفاتنا.

قال الأكبر: وهذا ما جئنا لنتفق عليه اليوم، ولكن حدث ما حدث!!

قال الساهى: إذن علينا بالجهاد من أجل تحقيق ذلك.

قال وارث العباءة: لا أفهم!!

قال البدين: على الجميع الطاعة لأمر وارث العباءة.

قال وارث العباءة: كان هذا هو المفترض، ولكن ماذا تفعل فى الصغير المارق شاتل الأرز؟

قال الساهى: علينا أن نفكر فى حل لذلك، ولو بالقوة.

قال البدين: بل يجب أن نكون أكثر ذكاء، سنحل المسألة، وربما بالقوة، ولكن علينا بداية أن نجد السبب.

قال وارث العباءة: لا أجد سبباً كافياً فى الحقيقة لاتباع القوة مع الصغير، إنما هو على شئ من التمرد، ولكن ربما مع بعض الحق.

بهت الساهى: كيف تقول ذلك؟ لا يجب أن تقوله أبداً حتى لو كان حقيقة، فما الحق الذى له؟

- حق الحفاظ على ما لديه، أرضه وزرعه وعيشه، أليس هذا حقاً؟

قال الساهى: ربما، ولكن حقه هذا يزعزع اجتماعنا كأخوة!!

وقال البدين: نعم، علينا إذن أن نبحث عن سبب آخر، علينا أن نفكر فى موضوع أقوى لصالح الجميع، نحن وجميع الأخوة، ومستقبل الحياة فى هذه القرية.

بعد ذلك ساد صمت ثقيل، غرق الأخوة الثلاثة الكبار فى فكر عميق، كل يحاول الوصول إلى حل أفضل، تلك الليلة انتهت بما لم ينتظره كل منهم، وفى الليالى الآتية ليلة بعد ليلة تنام العيون على فكرة أنهم لم يقدروا على التحكم فى مثل هذا الأمر الصغير.

نام أهل القرية الصغيرة حزانى، لقد مات الوالد، ولم يتفق الأبناء، وفقد وارث العباءة القدرة على القول.

اللئيم

اللئيم ذو الشعر المجعد والحاجبين الكثيفين المتصلين.

لم يكن اللؤم طبعاً سيئاً، وخاصة أنه فى هذه القرية كان يتصف به دائماً من يبدو طيباً، وهكذا كان اللئيم دائماً أيضاً.

ورغم أن الأخوة كانوا يستخدمون اللئيم أحياناً بشكل لا يعيبه هو نفسه، عندما يندفع إلى قول أو فعل يرى مصالح بعضهم ضد البعض الآخر، إلا أنه كان طيب القلب، وخاصة تجاه بنت أخيه الصغيرة، الوراقة، وعندما وقفت الوراقة تسأل أعمامها واحداً واحداً ماذا حدث فى يوم اجتماعهم؟ وإلام انتهوا فى أمر عمها الأصغر شاتل الأرز؟ نظر جميع أعمامها إلى أنها تتدخل فى أمر يخصهم وحدهم، لكن اللئيم فكر أن الوراقة تهتم بأهل هذه القرية، وأن الحب يملؤها، لذا طيب خاطرها، وقال لها: لا تقلقى يا ابنتى، كل شيئ سيجد جلاً فى يوم ما.

قالت الوراقة بحزن: كان عليهم أن يضعوا الحل فى نفس يوم اجتماعهم، أما الآن، فلا أحد يعلم ماذا سيكون من أمر قريتنا، تعرف ياعمى؟ لا أظن اجتماعاً آخر بنفس هذا القدر سيكون فى قريتنا أبداً بعد اليوم.

قال اللئيم: لا تشغلى بالك يا ابنتى، عليهم أن يعملوا هم فى ذلك.

قالت: لن يعملوا، وإذا لم نعمل نحن، فلن يحدث أبداً.

كان اللئيم يسكن داراً صغيرة، تلتصق بعدة دور أخرى يفصل بين الدار والدار جدار واحد، فقد اعتاد أهل هذه القرية ـ توفيراً للنفقات، أن يعتمد واحدهم على جدار الآخر، فيتخذه ساتراً من جهته، ويبنى باقى

جدران بيته، ويكــون معروفاً عادة لمن الجدار، أما اللئـيم فقد بني داره بين ثلاثة جــدران، أولها دار الطيب والذى بنى وحــده جدرانه الأربعــة، وبنى البنا البيت الثانى جنــوب البيت الأول وملاصقاً له ومتــخذاً جداره الجنوبى جداراً شمالياً، وحدث أن الحداد بنى بيــتا شرق بيت البنا، تاركا فراغا بينها للمرور ولجلب الهواء. فــجاء النجار، وكان قد أحب الشمــال أيضا، فبنى بيته شمال بيت الحداد وملاصقا له ومســتخدما جداره الشمالى. وعندما مر اللئيم يومــا ورأى الفجوة بين البــيوت الأربع قال لنفــسه: لو بنى هنا بيت خامس لبنيت بيتا لا يكلفنى سوى جدار واحد.

الجـنوب

البنا

الطيب

الشمال

هكذا جاء الطيب أولاً وبنى داره

ثم جاء البنا وبنى داره متخذاً من جدار الطيب ساتراً

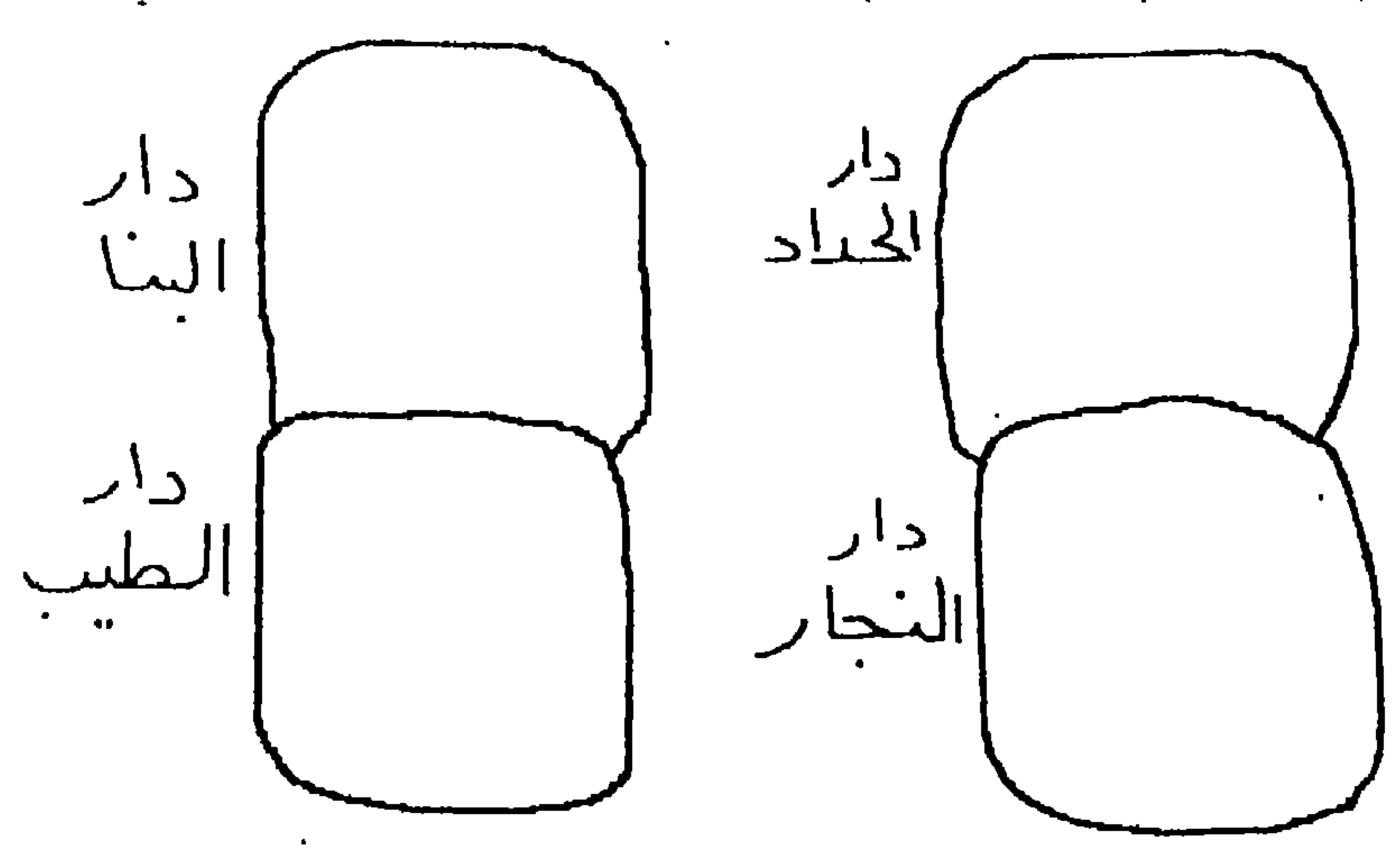
وفى مســاء ذلك اليوم بينمــا كان الراوى يحكى على ربابــته، جلس اللئيم يفكر من الــذى يمكنه أن يبنى ذلك البيت الخامس، كــان ذلك عندما قال الفارع أنه يريد أن يبــتنى داراً ينتقل إليها مــع أهلـــــه، كان الفارع فى ذلك الوقت لا يزال مقيــما فى البيت الكبير، وكان قــد حادث أباه فى أمر بناء دار صغيرة لنفســه، فبارك الوالد ذلك، كان على فراش المرض ويرغب فى إرضاء الأخوة، وخاصة أن الفارع كان قــريباً إلى قلبه بصفة خاصة، لما كان لأمه من مكانة لديه، وكانت امرأته تشكو من ســخرية بعض حمواتها لعرج فى ساقها، عندما كان الفارع يحدث جاحظ العينين وهما جالسين فى أقصى الزاوية، كانت أذن اللئيم تتابعهــما، وما لبث أن اقترب منهما وألقى إلى الفارع بكلمات قليلة، لكنهــا كانت كافية، قال اللئــيم: لم لا تبنى بيتا

بين بيتى البنا والحداد، بينهما فراغ يكفى، ولن يكلفك كثيراً لأنك سوف تعتمد على جداريهما.

قال جاحظ العينين إذ ذاك للفارع: ولم لا؟ هل تفهم قصد اللئيم؟

قال الفارع باسما: ومن لا يفهم اللئيم يا أخى؟ أنت تعرف أنه فقير اللؤم.

لم يغضب اللئيم لهذا الوصف، فقد اعتاد عليه من أخوته فى أكثر الأحوال، ثم إنه كان لا يهتم كثيرا بغير أن يوفق إلى ما أراد.



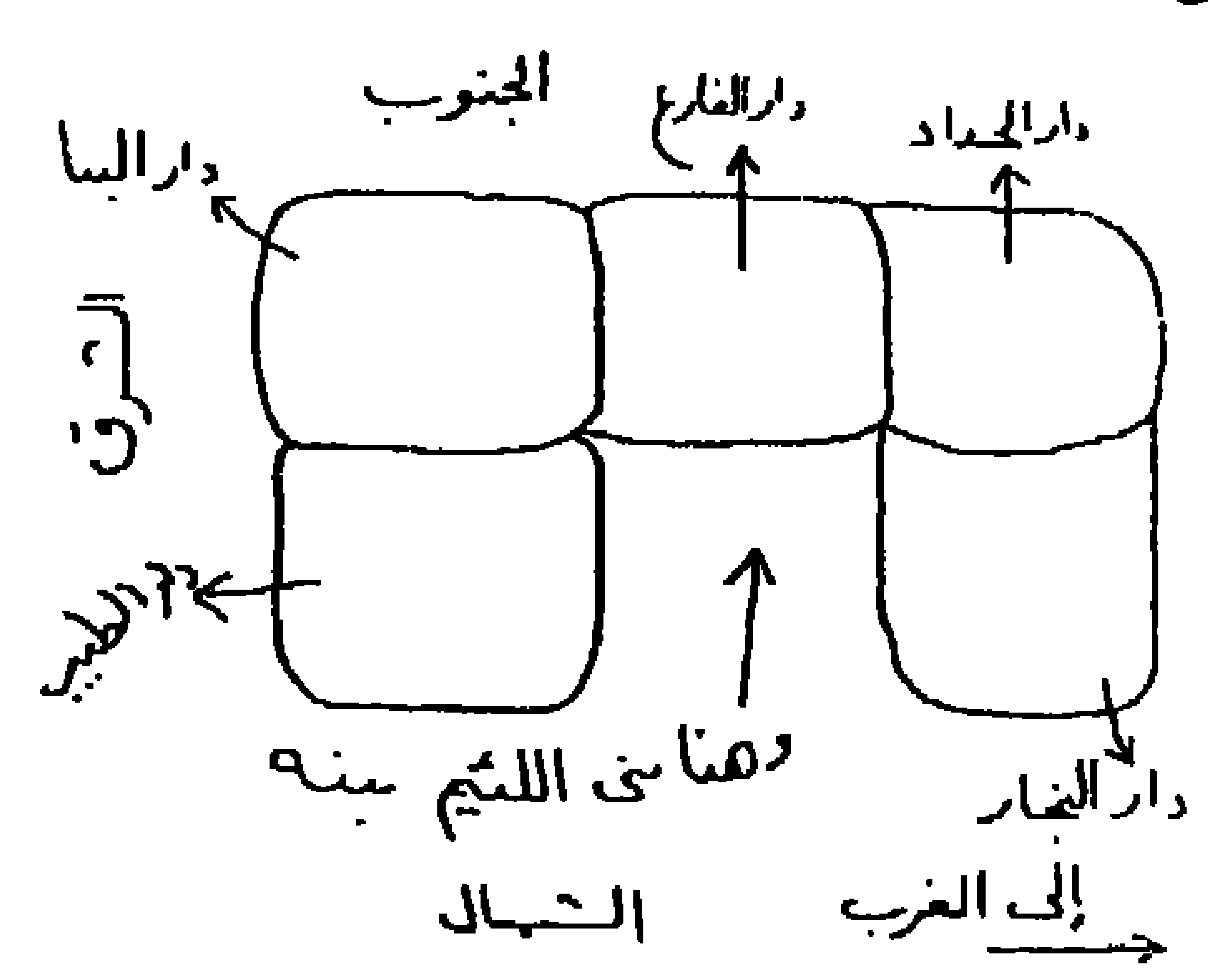
وهكذا كانت البيوت الأربع قبل بناء الفارع لداره

لم يلبث الفارع أن بنى بيتاً بين بيت البنا وملاصقاً له ومستخدماً جداره الغربى من ناحية، وبيت الحداد - مستخدما جداره الشرقى - من الجهة الأخرى، وكان هذا يعنى أن الفارع قد استخدم جدارين موجودين

بالفعل ولم يبن سوى جدارين شمالا وجنوبا، فكر الفارع قائلا لنفسه: ولم لا، يريد اللئيم فى النهاية أن يبنى لنفسه داراً بأقل الجدران، ولأفترض لنفسى أنه، مع كثرة عياله، يحتاج لمثل ذلك، كان أبى يقول إن جاءك الغصب فاعمله جميلة.

وبنى البيت.

وهكذا تبقت قطعة من الأرض تحيطها جدران ثلاثة هى: جدار الطيب الغربى، وجدار الفارع الشمالى، وجدار النجار الشرقى، وهنا بنى اللئيم بيته معتمداً الجدران الثلاثة، فلما وجد أن مساحة بيته صغيرة فكر أن يبنى طابقاً آخر، فاستأذن الأخوة الثلاثة أصحاب البيوت الملاصقة لبيته أن يصعد بطابقه الثانى فوق جدرانهم. وأصبح لا أحد منهم يستطيع أن يهدم جداره، لأنه هكذا يهدم جدار الطابق الثانى فى بيت أخيه، وكان هذا أقصى ما يستطيع من اللؤم فى الحقيقة.



هكذا بنى الأخوة بيوتهم وهذا بيت اللئيم فى الوسط

وقال الفارع: أعرف قصد اللئيم هذا، ولكن ماذا يضير؟ فى الحقيقة هذا أقصى ما يستطيعه من اللؤم.

وكانت هذه حقيقة، لكن الأخ البدين لم يكن ليفكر بنفس الطريقة، وإنما فكر هكذا: لو كانت لى دار اللئيم لامتلكت أخوتى هؤلاء، وعرفت أسرار بيوتهم، وتدخلت بينهم وتمكنت منهم.

ثم قال: هذا اللئيم فقير اللؤم، ما أسهل أن يميل إلى طريقٍ آخر طمعاً فى جدار رابع، وأظن أن الأمر سيكون فى غاية السهولة.

وفكر أيضا: فى الحقيقة أن دار اللئيم أهم هذه الدور، فهى أوسطها، وتتمكن منها، ثم أنها تواجه الهيش، ومنها يمكن السيطرة عليه، وهناك يمكن للغادر أن يأتينى متى أريده.

وعاد يقول لنفسه: فى الحقيقة أريد هذه الدور كلها، فهناك الفارع، وهناك البنا أيضا، والذى لو تزوج من الوراقة لما استطعنا أن نقف أمام اجتماعهما. هذا البنا، ولا تنس أنه ابن جاحظ العينين أيضاً.

كان ذهنه يلح عليه دائما: الوراقة تسأل كثيرا فيما لا يجب السؤال عنه. والبنا يعمل ويبنى للجميع، ويوما ما سيبنى ذلك البناء القادر على إجابة تلك الأسئلة. أما الفارع... على أية حالٍ هى بيوت طيبة، ولم لا أمتلكها أنا؟

بعد مغرب يوم ما، اتجه البدين إلى دار اللئيم فى زيارة ودية، طرق البدين الباب، فتح اللئيم بابه وأدخل أخاه الذى يكبره مرحبا به، نظر إلى امرأته فأسرعت تأتى بالشاى، وجلس أولاده أمام عمهم مرحبين، قال البدين: يا الله، لما كنت لم تزرنى منذ فترة، قلت أسأل عنك.

قال اللئيم: يا أهلا بك، تعرف أننى كنت مشغولا بالبناء، ثم شغلنا ترتيب الدار، الأمر يستغرق منك وقتاً لتعتاد على دار جديدة، إنك على أية حال لم تزرنى فى دارى هذه منذ بنيتها!

كانت هذه هى الفـرصة التى ينتظرها البـدين، وقد جـاءت أسرع مما يتوقع: هل أنت مرتاح فى هذه الدار يا لئيم؟

قال اللئيم: حياة والسلام، ماذا نبتغى سوى الستر؟

قال البديـن: تعرف؟ عندما كنت تتحـدث عن بناء هذا البيت، كنت أظنه أكثر اتساعاً!!

قال اللئيم: هو أكثر اتساعا مما كنا فيه من قبل على أية حال.

"مما كنا فيه" يعنى بيت الوالد، والذى كـان أكثر رحابة من أى مكان آخر، إلا أن العـدد الذى كان يقيم فـيه كان قـد وصل إلى حد التخـمة، ولهذا كانت هذه الخروجات إلى بيوت أخرى قريبة.

فكر البـدين أن يحول دفـة الحديث لبـعض الوقت، لم يكن يريد أن يفهم اللئيم بسـرعة ما جاء من أجله، ولكى لا يأخذ حذره كـما هو المعتاد فى مثل هذه الأحوال، قال البدين: وكيف حال حقلك؟

قـال اللئـيم: لا أشكو، زرعت قطناً وأصـابتـه الدودة، لكن أولادى يذهبون كل صباح يلمون اللطع، الحمد لله على أية حال.

ابتسـم البدين ملوحا بالكلمات: الدودة قليلة هذا العام...

ضحك اللئيم ضحكة من يحـمل الهم ولا يبالى: يبدو أن قليل الحظ مثلى يجد العظم فى الكرشة؟؟

جاءت امرأة اللئـيم تحمل صينية الشاى، فى الأكواب اللامـعة المذهبة التى لا تخرجـها إلا عند مقدم ضيـف عزيز، نظر البدين إلى زوجـة أخيه وقال وهـو يتناول الشاى من يدها: أحب شـايك يا امرأة أخى، يا أخـتى العزيزة، أحب أيضا كيف تنظمين الأكواب فى الصينية، تهتمين بكل شئ.

قالت المرأة باسمة: أهلا بك يا ابن عمى فى كل وقت.

وعاد البدين يلتفت إلى اللئيم: لقد حباك الله بامرأة نادرة يا أخى.

قال اللئيم: نحمد الله على كل حال، أنها نوارة بيتى يا أخى، والظل الذى نستظل به أنا وأولادى.

جلست المرأة متربعة بالقرب منهما وقالت: ما هذا كله، لم أسمع مثل هذا المدح منذ زمن، فماذا تقصدان على كل حال؟ الشاى وقد عملته، تأملان فى غداء؟ ولم لا؟ لكن فيما عدا ذلك عليكما أن تفصحا!!

ضحك البدين، وقال اللئيم: هكذا هى، لا تتلقى المديح بقبول حسن، وهو عيبها الوحيد فى الحقيقة.

ضحكت المرأة قائمة: من المدح إلى ذكر العيوب، الأفضل لى أن أقوم إلى حالى.

قال البدين وهو لا يزال يضحك: وماذا تفعلين؟ اليوم انتهى ولم يعد إلا التسامر فى مساء كهذا؟

قالت وهى تتجه خارجة من المقعد: هكذا يقول الرجال دائما، لكن النساء لهن عمل فى كل وقت وأوان.

وقال البدين ملتفتا إلى اللئيم: ولمن تبيع قطنك؟

قال اللئيم: والله قد أقرضنى أبو البنات التقاوى، وسوف يأخذ القطن، بناته يقمن بالغزل والنسيج.

قال البدين: أى والله، يأكلها والعة أبو البنات هذا، وهل ترتاح فى التعامل معه؟

قال اللئيم: لا أشكو، ولا يوجد غيره على أية حال!!

قال البدين: كيف تقول هذا؟ إن كان لا يرضيك فتعال إلىّ، وأنا أجد لك مخرجاً!!

قال اللئيم: والله كلام جـميل، لكن ما بالكلام يصلح الحال، أنت يا بدين تبيعه قمحك، فكيف تجد لى مخرجاً؟

لم يهتز البدين ولا هزةً واحدة: والله أتصرف لك لو لزم الأمر!!

نظر اللئيم إلى البدين قليلا ولم يرد.

أعاد البدين: قل إذا كانت لديك مشكلة، وانظر ما يكون.

قال اللئيم: كيف تفعل هذا؟

ـ أتظننى لا أقدر؟

ـ بل أظن أنك تقدر، ولا أعرف فى الحقيقة لماذا لا تفعل؟

ـ لأنه هكذا تعارفنا، نحن نزرع، وهو يـتاجر فى الأسواق البـعيدة، لكن لو طغى يمكن أن نتصرف فى الأمر.

ـ على أية حال لا أعرف إن كان طاغياً، فلم أعامل غيره!

فى نظرة البدين ضيق لكنه تصور أن يغير مسار حديثه: وهذا البيت، هل يكفيك؟

قال اللئيم: حياة والسلام، ماذا نبتغى سوى الستر؟

بدأ الكلام يتكرر، أصبح الأمر بحـاجة إلى مثير جـديد، قال البدين ببطء: كنت أريد بـناء بيت لى، فـهناك أرض تكفى جـنوب البلدة، وقـد رميت أساساً، ولكن..

ـ ماذا؟

ـ المكان متسع، وليس لى من الأولاد سوى ثلاثة كما تعلم.

ـ الاتساع خير.

ـ نعم، لكن المرأة عادت تشكو من المكان البعيد عن أهلها، ومن عدد الخدم المطلوب لبيت كهذا، فى الحقيقة لا تنوى المرأة الذهاب إليه وترك بيتها، لذا أفكر فى التخلص منه، ماذا أفعل ببيت كبير لا نسكن فيه.

ـ ولماذا أردت بيتاً آخر؟

ربما كان هذا هو السؤال الذى ينتظره البدين طوال الوقت: الأمر أننى أريد مكاناً لمجالسة أخوتى، بيتى لا يكفى لهذا، فلما أردت بيتاً أكثر اتساعاً، لا ترغب المرأة فيه، كل ما أتمناه الآن بيت صغير يكفى لنتجالس فيه معاً، ندخن بعض الحشيش فى أوقات صفائنا، وندبر فيه أمورنا بعيداً عن أسماع النساء والعيال، وتواتر الأقوال بينهم الذى لا ينتهى إلا بمشاكل لا نتوقعها، بيت نجلس فيه بعيداً عن بيوتنا فلا يكون هناك من يقول جئتنى وجئتك وما إلى ذلك، بيت... هل تعرف...؟

ونظر حوله فى براءة وهو يكمل: بيت كهذا يكفى.

قال اللئيم ولم يسعفه لؤمه فى هذه الحال: وما عيب البيت الكبير فى هذا الغرض؟

سكت البدين قليلا، ثم أجاب: البيت الكبير يحتاج لامرأة، العناية به صعبة وبحاجة للكثير من الخدمة، أما البيت الصغير فما أسهل أن تطلب من الفقير أو غيره أن ينظف هذا المكان أو ذاك..

قال اللئيم حائراً: ربما كان عندك حق فى هذا.

وسكت، ما الأمر؟ جعل رأسه يدور، هل يـريد البدين أن يأخذ بيته هذا مقـابل ذلك البيت الكبيـر؟ هذا ما يرمى إليه الحـديث، لكن هل فهم تماماً؟

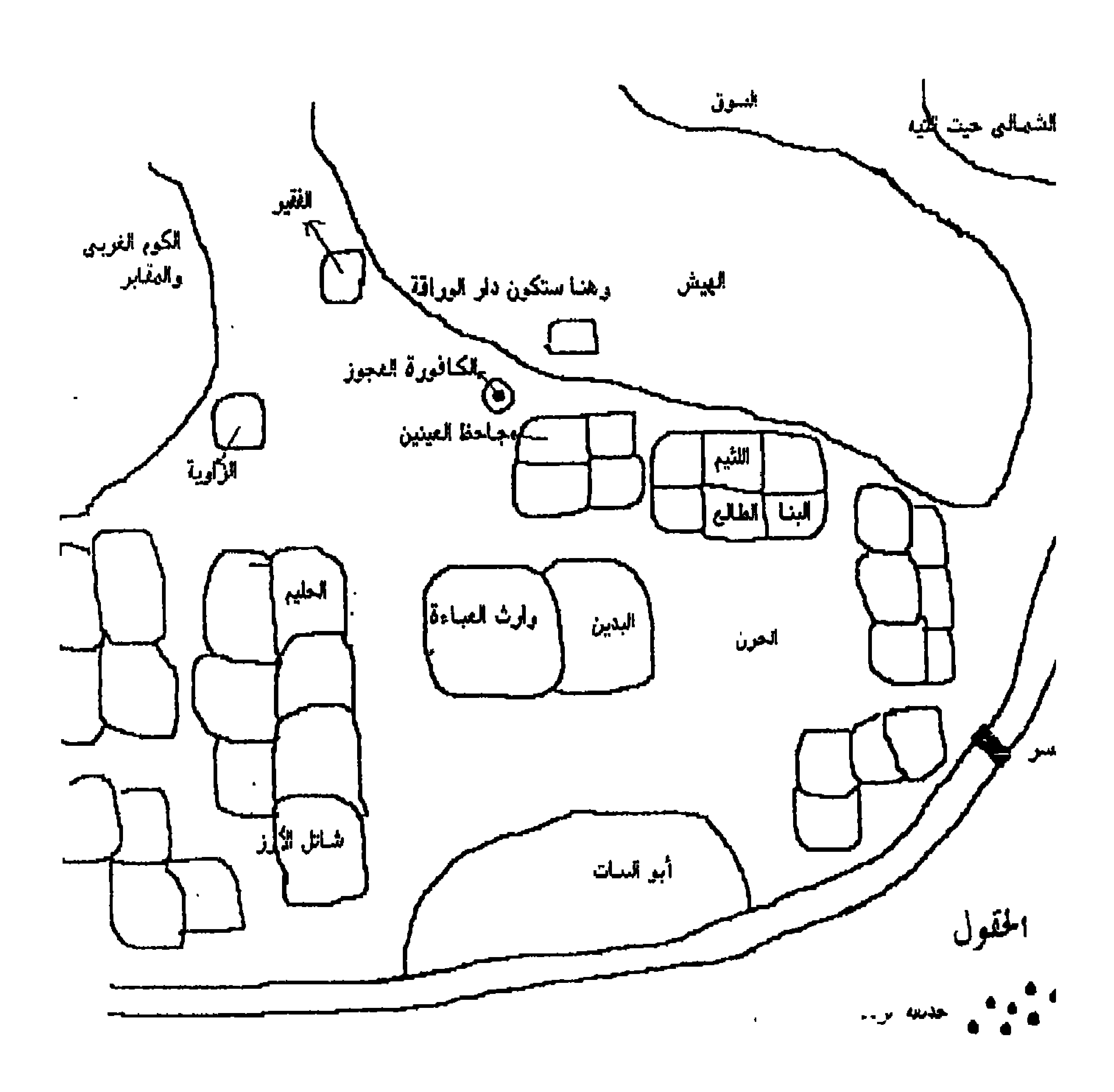
قال بشكل جعله يبدو مازحاً:

- الأمر يبدو وكأن كلاً منا يحتاج بيت الآخر؟

قال البدين ببطء:

- هو هكذا!!

امتلأ اللئيم دهشـة، ربما لا تتوافق الدهشة مع اللؤم، لكن أنى له أن يتصـور أن البدين هذا، أخاه الأكـبر، الذى تمتلئ داره زبداً وعـسلاً، يريد داره، ومسـتعد أن يبادلهـا بدار أكبر، وأكثـر قيمة، وأرحب وأوسع، فـما العمل؟ لابد أن يفكر فى الأمـر جيدا، مـاذا فى داره أفضل من تلك الدار الأخرى؟



القرية التى شهدت وقائع الرواية

الساهى

يقول لنا التاريخ المكتوب، والقصص المحكى، أن الأخ الأكبر دائماً طيب القلب، أحادى التفكير، يقنع بالمغانم الصغيرة القريبة، ونادراً ما ينظر إلى ما وراء الستار.

وكذلك يقول لنا كلاهما - أعنى التاريخ المكتوب والقصص المحكى - أنه - أى الأخ الأكبر - غالباً ما يتمتع بنرجسية عالية، ينظر فقط إلى حدود أنفه، وقد لا يرى، أو لا يهتم بأن يرى، ما هو أبعد منها.

كان هذا هو المحور الذى يدور حوله بناء الأخ الأكبر، وكذا فهم الأخوة أن أخاهم هذا لا يهتم إلا بالأهداف القريبة القطوف، ربما أنه كان طيب القلب حقاً، ولهذا كان من السهل على الأخ الثالث - الساهى - أن يوجهه أحياناً بشكل غير مباشر، كما كان من السهل على الأخ البدين أن يقنعه دائماً.

وهكذا لم يكن من السهل على الأخ الأكبر - وارث العباءة - أن يترك الأمور تمر بسلام، فنصيحة الأخوين الآخرين كانت أقرب وأكثر حبكة.

كان الأخ الثالث - الساهى الذى تحته دواهى - يملك مزرعة صغيرة، ومنحلاً يدر عليه بعض المال اللازم لجعل الحياة أفضل، لكن مزرعته الصغيرة كانت مصدر همٍّ له، فهو إذا هم بزراعة أحد المحاصيل الهامة قيل له: كم ستنتج هذه المزرعة الصغيرة؟ الأفضل لك أن تزرعها ببعض الخضر.

ولم تكن زراعة الخضر سيئة، إلا أن النساء دأبن على عادات سيئة فى هذه القرية، فقد ترسل إحداهن أحد صبيتها إلى أى مزرعة من مزارع الخضر فى الصباح ليقول لصاحب المزرعة: تقول لك أمى نريد عودين فقط من الملوخية.

أو مثلاً: تقول لك أمى نريد حبتين من الطماطم.

وهكذا، لا يستطيع أن يرفض مثل هذا المطلب، فماذا يضير محصوله لو نقص عودين من الملوخية أو حبتين من الطماطم؟ إلا أنه بالطبع لا يستطيع أن يعطى مثل هذا الصبى عودين بالعدد هكذا، وإنما عليه أن يقدر ما يكفى أسرته ليوم على الأقل، لوجبة واحدة، فيعطيه له، فماذا يتبقى له فى آخر الموسم ليبيعه؟ لولا هذا المنحل لمات أطفاله جوعاً، وكم كان يتمنى لو يستطيع أن يزرع أرضه بمحصول هام مثل القطن أو القمح، أو حتى الأرز، لو كان ذلك ممكنا، محصول لا يسرقه الأطفال ولا ترسل إحدى الأمهات فى طلب بعضه.

فكر الأخ الثالث هذا فى نفسه: من منا أولى بأن يكون لديه مزرعة كبيرة؟ أخى الأصغر هذا ليس لديه أطفال وأطفالى كثيرون. وفوق ذلك فهو لا يبدو قادراً على تحمل مثل هذه المسئولية، المزرعة الكبيرة مسئولية، فلو كنت أنا الذى أملكها، ما قمت بزراعة محصول يجعل روح أبى المسكين تهيم بلا راحة، أما هو، فقد زرع الأرز دون أن يفكر لحظة واحدة فى أبيه والذى كان مريضاً وقتها، ولا نعرف، ربما أن أحدهم تحدث بذلك أمام الوالد فى مرضه فزاده مرضاً، وربما أن معرفته بمثل هذا الأمر بالذات كانت سبباً مباشراً لوفاته.

عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير لم يطق الكتمان، قال لنفسه: هذا أمر لا يصح السكوت عليه، هذا مثل الشهادة التى يأثم كاتمها. لابد

من بحث هذه المسألة مع وارث العباءة، فهو كبيرنا، وإليه يعود الرأى الأول فى كيفية حل هذه المعضلات.

خرج من بيته قاصداً بيت أخيه، فلما دخل عليه وجده جالساً مع بعض أبنائه. كان الوقت بعد الغروب وقد عادوا لتوهم من الغيط، ورأى وارث العباءة فى وجه الأخ الساهى ما يوحى بأنه أتى فى أمر خطير، فطلب من أبنائه أن يتركوهما وحدهما، وأقبل عليه يسأله، فبادره قائلاً: لقد اكتشفت مسألة فى غاية الخطر، لو صحت...

قال ذلك فى لهجة محاذرة، وتمهل قليلا، إلا أن وارث العباءة تعجله: ما هى؟

ورأى الساهى أن المستقيم أسرع الطرق وأكثرها فاعلية: أن الأخ الأصغر قد يكون السبب المباشر فى موت أبينا.

- ماذا تقول؟

استمر وكأنه لم يقاطع: فقط هناك سؤال يجب بحثه، هل ذكر أحد أمام أبينا - رحمة الله عليه - فى أيامه الأخيرة أن أخانا الأصغر قد شتل أرضه أرزاً؟

- يبدو أنك قد جننت، بل وفقدت إيمانك بالله تعالى، هل تأتى اليوم لتنكر أن أباك قد مات فى الوقت والأوان الذى أراده الله له؟

تسلح الساهى بالصبر على هذه الكلمات، فلم يكن يريد أن يقع الآن فى وارث العباءة، ولذلك فقد حاول بهدوء شديد: لقد أخطأت فهمى، فمن هذه الناحية ونعم بالله، أما من ناحية أن بعضهم قد يقصد دفعه إلى الموت، فهذا أمر آخر!

ـ بل أفهمك تماماً، يبدو أنك لا تعرف بم تهرف، ويبدو أنك قد كبرت وخرفت.

لم يتمالك الساهى نفسه عند هذا الحد: أنا كبرت وخرفت؟ فماذا عنك يا أخى الأكبر العاقل؟

– هل وصل بك الأمر لإهانتى فى بيتى؟

– أنا ما أهنتك وإنما رغبت فقط أن أرد عنى شرك.

فى هذه اللحظات تخلى الأخوان عن حذرهما المعتاد، فانطلق كل منهما يقول ما بدا له، وبدأ صوتاهما يعلوان: أخرج من بيتى!

– تطردنى يا أخى الأكبر؟

– أطردك نعم، وماذا تبغى منى عندما تأتينى بمثل هذا؟

– لأنى عرفت الحقيقة؟

– أنت مجنون!

رغم التهمة الكبيرة من وارث العباءة، إلا أن الساهى أحس بأنه سيفقد الكثير لو انصاع لما يحس أنه يجب عليه بمزيد من الصياح، والذى قد يجلب من لا يرغب كل منهما فى وجوده: اعط نفسك فرصة لسماعى إلى النهاية!!

– وماذا أسمع أسوأ مما قلت؟

ـ أنا لم أقل بعد، وعليك أن تسمعنى، فأنت كبيرنا!!

ـ إذا فكرت قليلا فيم تقول سترجع عن كل كلمة!!

– لا أستطيع الإساءة إليك بأى كلمة، إنما عنيت ما قلت، ربما يكون هناك من تسبب فى موت أبينا.

- هل تعنى أننى كنت سببا فى موت أبيك؟

- ها قد أفصحت عما فى نفسك، ومن على رأسه بطحة يتحسسها!

- وها أنت تفصح عن جنونك، اغرب عن وجهى.

- أنا ما جننت، ولكن ما هذا ما جئت من أجله!

- ولا رغبة لى لمعرفة ما جئت من أجله، أنت لا تعرف كيف تفصح دون أن تجرح.

- يا أخى العزيز، كل ما كنت أريد أن أعرفه، هل أخبر بعضهم أبانا بموضوع شتل أخيك لأرضه أرزاً؟

- لا أعـرف، فأنا لم أكن برفـقتـه طوال الوقت، ولكن لنفـرض أنه حدث فماذا يعنى هذا؟

- مـاذا يعنى؟ هل تسـأل ماذا يعنى؟ لو حـدث هذا لكان هو الأمـر المباشر الذى أدى إلى موت أبيك كمداً وحزناً.

فكر الأخ الأكبر قليـلاً، هدأت نفسه وبدا على وجهه شبح ابـتسامة، قال متأنياً: هذا أمر خطير، كيف توصلت إلى مثل هذه الفكرة؟

فاض الكيل بالـساهى، فلا يرد مـثل هذه التهمـة التى وجهـها الأخ الأكبر وارث العباءة له سوى الصـياح، وقديماً قال الحكماء من أهل القرى فى بر مصر المحروسة: خذوهم بالصوت وإلا غلبوكم، الصوت أم السوط؟ الفارق ليس كبيراً فى النطق، أما فى المقصـود فهو. . حسناً، لا أظنه كبيراً أيضـاً، ما علينـا، المهم أن الذى حدث الآن هـو أن الأخ الثالث قـد رفع صوته فى وجه أخيه، وكـان هذا أمراً غير طيب بالمرة، لكنه - وهو الرجل المؤمن ويعـرف ذلك جـيداً - لم يـجد سـوى هذه الطريقـة التى ظن أنهـا ستكون مقنعة تماما، قال فى صياحه هذا: كيف تقول لى هذا، وأنت تعلم

جيداً أننى رجل لا يعنى سوى بما فى صالح الجماعة، وكلكم يشهد لى بأننى لا يهمنى سوى الحق الذى حض عليه ديننا الحنيف، كيف تقول لى هذا؟ ألا تعلم أننى أهتم فقط بتبرئة ساحتى فى يوم عظيم، يوم نقف بين يدى الديان، كل ما أبحث عنه هو أن اطمئن إلى أن أبى رحمة الله عليه لم يقتل وقلت أننى قد عرفت شهادة يجب ألا أكتمها، سأسألك سؤالاً واحداً، وأستحلفك بالله، وأنا أعلم أنك رجل يحرص على أداء الصلاة، أن تجيبنى عنه بأمانة..

رأى الأخ الأكبر فى هذا القول إهانة بالغة، فهو لم يكن فى أى يوم غير أمين لكى يستحلفه بكل هذه الأيمان، وأضف إلى ذلك أنه كان قد أحس بضيق بالغ من هذا الصوت المرتفع فى وجهه، ولهذا فقد قاطع أخاه - ورغم أنه لم يكن يحب مقاطعة الآخرين - قائلاً: ماذا رأيت قبلاً من عدم أمانتى لكى تستحلفنى هكذا؟ ياأخى لولا أنك فى بيتى..

بيته؟ أثارت هذه الأخ الثالث بشدة، منذ لحظات كان يوجه له طردا مباشرا من هذا البيت، والآن يعود ليهدده بالأمر نفسه، "بيته" هذا خاصة كان بيت العائلة، ولولا أن زوجته دأبت على الشكوى من زوجات الآخرين من الأخوة، ولولا أن العدد كان أكبر من أن يستوعبه بيت واحد، لولا هذا وذاك وأسباب أخرى لكان الآن شريكاً فى هذا البيت لهذا الأخ الأكبر الذى ورث عن الأب أفضل الأشياء، ومنها - وليس آخرها - هذا البيت الذى ادعى أن الأب قد باعه له ولم يترك لأحد فرصة الاطلاع على الحجة التى ادعى ضياعها، ولم يكن فى مقدور أحد ساعتها أن يترك حزنه على أبيه ليجادل فى ذلك كثيراً، خاصة وهم الذين أرادوا بشدة إظهار مدى اجتماعهم وتضامنهم فى حدادهم. وانتهز هذا الفرصة واستقل بالبيت، حقاً أنه كان مستقلاً بالبيت فعلاً قبل موت الأب، ففى السنوات الثلاث الأخيرة لم يكن يعيش فيه مع الوالد سواه، ولكن فى مسائل الميراث هذه

كل شئ يأخذ حقه من البحث، وكل حى يأخذ حقه من الميت، وفى هذا الموقف الآن، كانت له ـ أعنى للأخ الثالث، الساهى ـ حقاً فرصة ليقول ما يعتمل فى صدره بخصوص هذا الأمر بالذات، فقال فى حدة زائدة: بيتك؟ هل هو بيتك حقاً؟ أنت لم تثبت ذلك حتى الآن.

كان صياح الثالث لأول مرة حرصاً على كرامته، أما الآن فهو حرص على شئ آخر، ولكن الصياح عموماً قد فعل شيئاً آخر على أية حال.

كان الأخ البدين ذو الشعر الكثيف قد اتخذ بيته بجوار بيت الأخ الأكبر وارث العباءة، فهذا الأخ البدين ذو الكرش والشعر الكثيف كان لتوه يبدأ جلوسه لتناول الوجبة الرئيسية، وقد كانت هذه الوجبة هى أهم وجبات اليوم فى القرية بشكل عام، وعند هذا الأخ بشكل خاص كما ولابد أن نتوقع، ورغم ذلك فقد كان الصوت شديد الوضوح كأنما كان نداء له بشكل عاجل، وقد كان من الصعب ألا يلبى النداء، قام تاركاً مائدته المفضلة، ولم يكن ذلك طيباً، خرج إلى بيت وارث العباءة المجاور لبيته، دخل إلى الشرفة الأمامية التى جلس فيها الأخوان الأكبران ـ لقد كان ترتيبه الخامس ـ فى نفس اللحظة التى كان الأخ الأكبر وارث العباءة يتهيأ للرد على الاتهام الثانى من الأخ الثالث فأسرع يوقفه قائلاً: ما هذا يا أخوى الكبيرين؟ هل نصل فى تعاملنا إلى هذه الدرجة؟ لقد تركت الطعام وجئتكما، صياحكما أعلى من أن لا يسمع، أهذه كانت وصية الوالد رحمه الله؟

وعند ذكر ذلك، ولأن كلاً منهما كان قد انساق خلف الكلمات دونما تفكير فى العواقبُ، فقد وافق كلاهما هذا الأخ بأن خفض رأسه مظهراً ألمه ومتمتمين فى وقت واحد: رحمة الله عليه.

كان هذا هو التسليم الأول، وهما لم يفعلاه انهزاماً، بل عن ثقة بأن لكل منهما حاجة للآخر، فكر الأخ وارث العباءة أن صياحه في وجه أخيه كان حقيقة لأنه كان يفكر في الطريقة المثلى لحل مشكلة عناد الأصغر، فعندما نطق الأخ الثالث بفكرته الشيطانية، وجد للتو أنها هي الفكرة المثلى، رغم قسوتها، هذا ما جعله يثور في الحقيقة، خوفه أن يكون قد انكشف، والأمر الثاني أنه وجد أنه انساق أمام افتعاله الغضب، وتسرب الأمر من هيمنته حين تطرق إلى مسألة البيت وهو ما كان يخشاه أكثر الخشية، رغم يقينه أن هذا البيت إنما هو حقه الذي لا مراء فيه، ألم يكن هو يعيش فيه مع الوالد حتى آخر يوم له؟ أما كان هو الذي تحمل الوالد الكريم حتى آخر لحظة؟ لكن الأمر لا يخلو من حرص واجب، فماذا لو أثير موضوع الحُجة مرة أخرى؟ أما الأخ الثالث فقد كان يريد أن يبرئ نفسه من الاتهام المباشر بالقسوة، أما البدين، وهو الذي جاء ليتدخل بالخير بينهما، فقد خشي هو الآخر نفس الأمر، أن يتطرق الأمر لمسائل الملكية، وهو الذي يسكن في بيت كان مقاماً على أرض ملاصقة لبيت الوالد الذي أصبح الآن بيت الأخ الأكبر، وهذه الأرض كانت في الأصل أرضاً مملوكة للوالد تركها له ليبني عليها، وهكذا وقبل أن يفكرا كثيراً أسرع يدوي على أذنيهما: هل فكرتما بأنه من الأفضل لكما، بل لنا جميعاً أن نفكر في حل ينهي مشكلة أخينا الأصغر بدلاً من الشجار على مدلول الكلمات؟

لقد ضرب على الوتر مباشرة، الأكبر ضاقت عيناه، واختلج جفناه، ولم يكن هذا ليخفى على الأخوين، نظر كل منهما للآخر نظرة فهم ومقدرة، لقد كان الساهي هو أقربهم إلى البدين، رغم ما في الأمر من أشياء وما في النفوس من خبايا.

وضع الساهي يده على لحيته ممسكاً بها، وكانت هذه عادة دأب عليها عندما يحتاج إلى استخدام عقله قليلاً، قال بنبرات بطيئة وبصوت أكثر

هدوءاً: هذا ما جئت بشأنه، ولكنه بدلاً من أن يستمع لقولى، أخذ يكيل لى الاتهامات.

كاد وارث العباءة أن يندفع خلف الشيطان مرة أخرى، لكن البدين أسرع يقطع العِرْق: فماذا لديك من جديد يا أخى؟

- ما من جديد فى الحقيقة، كل ما فى الأمر أننى كنت أرغب فى معرفة من الذى اعتاد أن يلازم الوالد الكريم فى أيامه الأخيرة !

ـ لماذا؟

الأخ الثالث هذا كان يحاول أن يبدو متصفا بالكثير من الحلم فى الحقيقة، وعندما كان يريد أن يكون حليماً فعلاً، كانت عيناه تشعان ما يشبه النار الموقدة، وكانت أذناه تتقدان بلون قان، وأما وجهه فحدث ولا حرج، الزبيبة الكبيرة التى حال لونها إلى الكلاحة كأنها مغطاة بطبقة من الجير ترتفع محدثة أشكالاً غريبة من التجاعيد المرسومة حولها، ما علينا، المهم الآن أن هذا الأخ كان يريد أن يبدو حليماً إلى أقصى حدود الحلم، فسأل بصوت مبحوح مرتعش: هل فى ذلك من حرج؟

لقد كان الأخ البدين طيباً جداً، وكان أحياناً يخشى مثل هذه المظاهر من الأخ الثالث، فقال متراجعاً: كنت فقط أسأل، لو نعرف السبب تسهل الإجابة !

والغريب أحياناً، ولا أدل على طيبة قلب كل من هؤلاء الأخوة أكثر من ذلك فى الحقيقة، أن الألوان تتغير فى الوجوه بسرعة سير عقرب الثوانى فى صحنه فى مسار لا ينتهى، قال الأخ مجيباً أخاه: كنت أفكر فيمن قد يكون قد ذكر أمام الوالد فى مرضه أن أخانا الأصغر قد شتل أرضه الواسعة أرزاً.

ما هذا السؤال؟ هز البدين رأسه بشدة كأنما يرج محتوياتها، ربما تلك العادة كان قد ورثها من أحـد الأجداد، انتبه إلى الفكرة، ولاحظوا معى أن رجة الرأس هذه هي التى نبهته، لا اتفاق سابق بينه وبين الساهى، لا سمح الله، فـانطلق: يا إلهى، ألم تكن زوجـة ذلك الأخ الأصـغر شـاتل الأرز تكثـر من التردد على والدنا فى ذلك الوقت تتظـاهر بأنها أكـثر تفانـياً من زوجات باقى الأبناء فى خدمته؟

هذا هو مـا أسميـه الذكاء، لم يكن الأخ الأكـبر قـد خطرت له هذه الفكرة ببـال، وكل ما كـان يفعله هو نوع من الدفـاع النابع من كونـه كان أكثرهم معاشـرة للوالد بحكم معيشته معه، خـشية أن ينقلب الاتهام ضده أساساً، ورغم روعة هذا الحل، إلا أنه كان متوجساً لا يزال.

قال وكأنه يمشى على قشر بيض: هذا صحيح.

قال الثالث الساهى الذى تحته دواهى وقـد حال لون وجهه إلى سمرة وردية محببة: يا الله، أخيرا وصلنا، أرأيت ما كنت أبحث فيه؟

لم يمهلهـما الأخ البـدين الطيب، بل أسرع يطرق السـخونة البـادية: أرأيتما؟ كنت أحمل على امرأتى إهمالها لزيارة أبى فكانت تقول أن زوجة أصغرنا تقضى معـه جل وقتها وتتعلل بالعيال قائلـة هذه لا عيال لها ولهذا فعندها الوقت لترعاه.

لم يكن الأخ الأكبر وارث العباءة بهذه البراعة التى بدا عليها الأخوان الآخران، وكان لا يزال متردداً، فقال ببطء: لم أفكر أبداً فى أنها قد تقصد شيئاً كهذا.

قال الثالث فرحاً حتى أن لون وجهه عاد يتغير مرة أخرى: أنت طيب يا أخى، ولا يمكنك أن تفكر فى هذه الشرور.

قال الأكبر شارداً: بل أنتما فيما يبدو ابنَا أبالسة، ما ظننت أن الخيال يجنح بكما هكذا.

تبادل الأخوان نظرة ريبة، وقال الساهي في تردد: لك أن تتصور ما تشاء، ولكنى أصر على سؤال الجميع فى هذا الأمر.

عاد الأكبر يتمتم وكأنه يحدث نفسه: فلماذا يفعلان ذلك؟

هذا هو السؤال المطلوب إجابته، لماذا يفعلان ذلك؟ تساءل الأخ البدين: هل كان هناك ما يخشاه الصغير لو عاش الوالد؟

نظرا إلى الأكبر مستفهمين، وضع هذا رأسه على كفيه حزيناً، لقد كان يحب الأصغر فى الحقيقة، لكنه فكر فى الصالح العام كما يقولون، قال متألماً: لا أعرف!! لقد كان يحبه بجنون.

عاد الأخوان يحاولان تحريك المسألة: ألم يحدث أى حديث بينهما لأمر يجذب انتباهك؟

عاد يهز رأسه: لا أظن!!

ثم فكر قليلا، وعاد يقول: لكن قد يكون هناك أمر ما بخصوص الأرض!

- أى أمر؟ حاول أن تتذكر جيداً، فأنت الذى تعلم كل الأشياء.

- ربما أن أبى أعطاها له، فمن أين له بمثل هذه المساحة الواسعة؟

- ربما؟ أم أنك تعرف؟

- لا أعرف، أو ربما..

- تطلع الأخوان، وعيناهما اشرأبتا.

- ماذا تعرف؟

- في الحقيقة.. لا أعرف.

- هل رأيته يعطيه ورقاً ما مثلاً؟

- هل رأيتهما يوماً يتحدثان جانباً؟

- هل سكتا ساعة دخولك؟

- هل اختلى به في فترة مرضه؟

- هل...

ما علينا من كل هذه الأسئلة، المهم أن النتيجة الوحيدة والأكيدة أن الأخوة الثلاثة هؤلاء قد استطاعوا أن يستنتجوا أن الأخ الأصغر شاتل الأرز هذا لا يستحق الأرض التي يملك.

وفي النهاية، كانوا يتفقون على الاجتماع السري الذي يلتقون فيه لتحديد الخطوة التالية، وكان هذا الاجتماع لبعض الأخوة هذه المرة، فبعض الأخوة لم يكن له صالح بما يحدث، ولهذا كان أفضل مكان له هو في بيت البدين الصغير الجديد الذي اشتراه من اللئيم، في الحقيقة لم يكن هذا البيت صغيرا، لأن البدين استطاع في النهاية أن يدفع لمعظم الآخرين ليخرجوا من بيوتهم، وانفرد بموقع البيوت الفريد، ومنها، أطل على الهيش، وتمكن من اخفاء اللقاءات المرغوب في إخفائها، ليس تماما في الحقيقة، فهو، رغم كل ما قدمه من إغراءات، لم يستطع إخراج الجميع، فقد كان هناك واحد منهم شديد العناد.

جاحظ العينين

كان جاحظ العينين بستانياً.

لم يكن لديه أرض يملكها، ولذلك فقد عمل فى كل أراضى البلدة، استأجر الأخوة أخاهم هذا ليزرع لهم بساتينهم، فى كل بستان عملت يداه، زرع كل أنواع الفاكهة، ومن يديه جمعوا أحلى الثمار، ثمار البرتقال والكمثرى والزيتون. شجرات الزيتون التى زرعها كانت تكبر بسرعة، وتؤتى ثمارها فى سنوات قليلة، وعندما كان يحب أن يريح بدنه عند الظهيرة القائظة، كان يجلس تحتها. لم يكن يحب أكثر من رؤية ثمرة ناضجة يحملها فى الصباح إلى الوراقة وهى تجلس للقراءة أو الكتابة فى بستان أبيها، كانت الوراقة برية الطبع، لا تصاحب الكثيرين من أعمامها أو أبناء أعمامها وبناتهم، لكنها كانت تألف عمها جاحظ العينين وتطمئن إليه. وكان جاحظ العينين يحب الوراقة، فى الحقيقة كان يتمنى لو تزوجت أحد أبنائه.

يوم ولدت الوراقة، أخذها جاحظ العينين بين يديه، كانت صغيرة الحجم قليلة الشحم، وقد فتحت عينيها عن آخرهما، قال ضاحكا: هذه البنت التى لم أنجب، لكنها أخذت ألبابى، وخفق لها قلبى.

وقال لأخيه أبى البنات: فلتهب ابنتك هذه لابنى!!

قال أبو البنات باسما: ولم لا؟ أسعى إلى تزويجهن منذ الحين، فلأى من أبنائك تريدها؟

قال جاحظ العينين: فلتكن لأصغر أبنائى، لقد ولد يوم ماتت أمه، وحرم لبن ثديها، لهذا فسوف يكون بحاجة لامرأة تحمل الحنان كله،

وهذه حين أضمها إلى صدرى أشعر بها تحنو على وهى فى يومها الأول، فلتكن له.

ولهذا كان يقول دائما للبنا: هذى عروسك يا بنا، يابنى.

كان يراها فى داره وهو يفكر أحيانًا، تجالسه وتصنع له الطعام وتقوم بشئون البيت، وكان يقول لنفسه: لئن لم تكن الوراقة ست بيت ماهرة، فلابد أنها ستملأ البيت بالحب، وسيكون ابناؤها خيراً من كل الأبناء، فكر جاحظ العينين فى أن البنا أفضل من يناسب الوراقة، لكنه كان يتراجع عن طلبها لابنه لخوفه من أن هذا الطلب سيضايق أباها، الذى لم يزوج من بناته سوى اثنتين، الطباخة، وغاسلة الهم، وكلتاهما أتى زوجها معها ليقيم فى بيت جعله أبو البنات لهما، بجوار بيته. لقد ابتاع أبو البنات خمسة أفدنة على الترعة فى شمال البلدة، وأحاطها بسور حجرى يحجب الرؤية، وفى هذه المساحة حدد لكل من بناته نصف فدان تبنى عليه بيتها، وتمارس فيه عملها، فالنساجة والغازلة والخياطة يزرعن فى نصيبهن نباتاتهن الصابغة، والمربية تربى دواجنها وطيورها فيما يخصها من أرض، أما اللبانة فقد بنت بمساعدة ابنه البنا زريبة لجاموساتها الثلاث وبقرتها الوحيدة، أما أبو البنات نفسه فقد بنى بيته فى وسط هذه الأفدنة، وكلما زوج بنتاً بنى لها بيتاً صغيراً داخل نصيبها من الأرض، وفى وقت لا حق، حفرت الوراقة بركة كانت تحاول فيها تربية البردى، بدت النباتات فى البداية صغيرة ونحيفة العود لا تقارن بما ينمو على حافة الترعة، وبعد محاولات أخرى استطاعت أن تزرع نباتات أفضل وأقوى، فكر جاحظ العينين أن عليه أن ينتظر حتى تتزوج باقى البنات، أما بستان الزيتون والذى كان يقع فى وسط الحقول، فقد استعان أبو البنات يوماً بأخيه البستانى لزراعته، وكان يرغب فى أن يوفر لبناته بعض ما يحتجن إليه من الزيت والزيتون نفسه، بالإضافة إلى أن مكسبه من بيع كل من الزيتون وزيته فى السوق كان من أهم مصادره.

ولأن جاحظ العينين أحب الأرض فقد زرعها بصدق وعناية، في الحقيقة أنه لم يهتم يوماً بمسألة لمن يزرع، لقد أحب الأرض كلها، فزرع كل ما قدر على زراعته منها، ولم يسأل أحداً أجراً على ذلك، وإنما كان يكتفي بقطعة أرض صغيرة يزرعها لنفسه وتكفيه طعامه وطعام أولاده، وعندما عتب عليه بعض أولاده في ذلك قال لهم: ألا يكفيكم ما نأكل؟ هل أحسستم يوماً بالحاجة إلى المزيد؟

قال أحدهم: بلى يا أبي، ولكن جهدك هذا، ألا تستحق عليه أجراً؟

قال جاحظ العينين: إني أفضل ألا آخذ أجراً على أن يأتي يوماً من يقول أنه يطعمكم.

قالوا: فلماذا تتعب نفسك في زراعة بساتينهم؟

قال: إنما أفعل ما أحب، فإذا كنت أحب البساتين فيجب علي أن أعتني بها، وإذا كنت أرغب في أن أرى قريتي تمتلئ بأشجار الخشب وأشجار الثمر، فعلي أن أزرعها.

قالوا: لكن بعض من تزرع لهم لا يستحقون ما تزرعه؟

قال: من قال لكم هذا؟ ليس هناك من لا يستحق أن أزرع أشجاره، البستان الذي أزرعه يطعم منه الرجال والنساء، الكبار والصغار، ولا بد أنه يوجد في وسط كل هؤلاء واحد على الأقل يستحق، اسمعوا، سأطعمكم الثمر الذي أحببته، ومنه عرفت أن الشجرة التي أزرعها أغلى ثمناً من أي مال آخذه، وأحب إليّ أن أرقبها تنمو وتكبر من أن أتقاضى عنها أجراً.

أخذ جاحظ العينين أولاده الثلاثة الرجال يوماً إلى مزرعة من مزارع الزيتون التي قام بزراعتها والعناية بها على مدى سنوات طويلة، ولم تكن حينها سوى أرضاً بوراً يباباً، وأراهم كيف أصبحت جنة خضراء، ذلك اللون الأخضر الكابي الغريب.

قال وهو ينظر إليها: أظن الجنة لن تكون إلا شجر زيتون كهذا.

جاحظ العينين كان بستانيا.

هل جحظت عيناه لكثرة تمعنه فى الوريقات الصغيرة لأشجار الزيتون؟ أو تلك التجاعيد التى لا تنتهى لأوراق الجوافة؟ أم لطول تأمله فى الثمار منذ تتكون بادرات الزهور، وطوال نموها وتفتحها ودعوتها المعلنة للنحلات والفراشات لتحط عليها وتحمل إليها على شعيرات أرجلها ذرات الحياة، ثم سقوط وريقاتها عن الرحم الذى يحمل الثمرة الجنين لينمو، أم لطول تمعنه فى تحول ألوان الثمرة الصغيرة من الأخضر القاتم حتى ما تصل إليه من ألوان عند النضج، وحتى تكتمل وتقطف؟

وهل جحظت عيناه سعياً وراء الأفق لترقب طلوع الشمس وغروبها، وربما بسبب إرساله النظر للأفق البعيد محاولا اختراق المجهول الآتى، وقد يكون ذلك قد حدث وهو يرقب الحشرات الصغيرة التى تعيش بين أشجاره، بعضها يجب إبعاده وبعضها الآخر يجب بقاؤه، كانت الزهور تتفتح، وبكل الطرق ـ لكل زهرة طريقتها ـ تدعو الحشرات الطائرة من نحلات وفراشات لنقل ذرات الحياة بين أعضائها، لم تكن الزهرات تخجل من دعوتها السافرة هذه، ولا كانت الفراشات تخجل من الإجابة المباشرة، كل منها تستمتع بلمسات الأخرى وتفيد بها، كان يرى الابتسامة المتبادلة بينها جميعها، وكان يعرف فرحة الزهرة بالحمل حين تتعرى، تنضو عنها الوريقات التى انتهت مهمتها بالإغواء لتتفرغ لجنينها.

ربما لهذا السبب أو لذاك، لكن من المؤكد أن جحوظ عينيه كان يمكنه من رؤية أوسع وأشمل لكل ما حوله.

قال جاحظ العينين لأبنائه: لا أحب أن أرى مثل زهرة تتفتح..

قاطعه أحد الابناء: لكن الزهور تموت!

قال جاحظ العـينين: الزهور لا تموت، انما تنضو ثيابها الـزاهية لتضع كل عصارتها فى جنينها، حتى ينمو ويكبر ويصبح ثمرة، وهى تنضو ثيابها لكيلا تنتـبه الحشرات إلى جنينهـا فتحط عليه وتتلفـه، كانت الزهرة تلبس تلك الثياب الفاتنة لإغواء الفراشات والنحلات، فلمـا انتهت مهمتها عليها التخلص منها لتتفرغ لجنينها.

مـد يده وتناول بضع ثمرات خـضـراء من إحدى أشـجار الزيتـون، وناولها أولاده، قال أكبرهم:

- لكن هذه شديدة المرارة.

أعاد جاحظ العينين: قلت لك إنها أشجارى، كيف تقول أنها شديدة المرارة؟

قال: ذق هذه الثمرة، ذوقوا جميعاً.

خجل الأبناء أن يرفضوا طلب أبيهم، وضع كل منهم زيتونة فى فمه، ولم يجرؤ معظمهم على أن يلوكها، إلا واحدا منهم، وهو الذى خجل ألا يذوق مرارة الثمرة، ولكنه ما أن قضمها حتى قال:

- لاتزال شديدة المرارة.

قـال جـاحظ العـينين: عندمـا أذوق هذه المرارة أعـرف أن يدى قـد فعلت، وأن فعل يدى قد أثمر . وعندما أعرف هذا أحس بأنى أستطيع أن أخلق، وأن الله قد وضع بيدى سحراً لا ينفذ . وعندما أعرف هذا؛ أعرف أن سحر الكلمات التى أهمس بها لشجراتى أقـوى وأنفذ فعلاً من كثير من مؤامرات الزمن ضدى.

كان الأبناء الثـلاثة ينظرون إليه، وحـينئذ؛ وفقـط حينئذ؛ عـرفوا أى رجل هو أبوهم، وعرفوا أيضاً قيمة الكلمات.

قـال جاحظ العـينين: قلت لكم أننى أحـب الخضـرة، لكن ذلك لن يشفع لى، يوماً ما سأقتل وسيعلق جسدى على شجرة السرو الكبيرة الكائنة فى مدخل البلدة، فإذا حدث ذلك، فعليكم أن تنزلوه، وتواروني التراب، وليكن مـدفنى تحت نفس الشـجرة، فـهكذا سـوف أرويهـا وتتغـذى من خلاياى.

قال النجـار وكان هو الابن الأكـبر لجاحظ العـينين: لن يكون هذا يا والدى، ولن نسمح به، ولئن حدث لننتقم لك أشد الانتقام.

لم يكن جـاحظ العينين يحب الانتـقام، لذلك قال: لا تفـعلوا، بل اعلموا أن الموت هو من تربص بى، وهذا لن يتمكن أحد منه، ولذلك فإن الشئ الوحيد الذى عليكم فعله هو الحب، لا تسـمحوا للكراهية أن تدخل قلوبكم كمـا فعلت بأخـوتى، ارفقوا بأصـغركم، ولا تدعـوا الخلاف على المعانى يفسد بينكم، واعلموا أن الاختلاف هو الطبيعة التى يجب أن نتقبلها بلا كراهية، كما تقبلتم مرارة الزيتـون يوماً لأجل والدكم العجوز، فتقبلوا مرارة الاختلاف لأجل المزيد من المعرفة.

أما اليـوم فعلينا أن نـرحل إلى الهيش، نحـمل صرة الطعـام ونعزق الأرض من أجل المزيد من النمو.

وقال البنا حينئذ: من أجل المزيد من البناء أيضاً.

لكنهم لم يرحلوا إلى الهيش إلا والوراقة معـهم، حينئذ كانت الوراقة قد بدأت تحترق، لكن هذا أمر آخر.

أمسيات العجوزين

حينئذ قاطع المسلى الحكاء قائلا: اليوم يمضى، والحكاية تبدو جهمة، دعنى أحكى لكم قليلا.

سكت الحكاء، وتململ الريس قائلا: ما رأيكم لو نعمل ثم نعود إلى الحكاية فى المساء؟

قال ابن الريس الذى كان يفتح عينيه دهشة: بل دعه يقول الحكاية، أريد أن أعرف ما جرى للوراقة.

ابتسم المسلى وهو يقول:

ماذا يخفى كل عجوز فى جعبته من سحر يجعلنا نصغى؟ هل هو تلك الوصفة الساحرة المسماة بالخبرة؟ هل وصل هؤلاء العواجيز الساحرين إلى مستوى المعرفة الكاملة؟ لا يمكن أن يكون هذا هو الأمر، فلا يصل أحد أبداً إلى هذا الحد المخيف، لكنه مايحملون من تاريخ وأقاصيص قديمة. التاريخ، هذا هو السحر الخاص والخالص، أنت تحس كأنك لا تحمل شيئاً من الذكريات أمام ما يحمله ذلك العم، فبإمكانه أن يحدثك عن تاريخه وتاريخ أبيه وجده، حكاية من عاش كل هذه الأحداث بكل ما فيها من أسرار موحية، ومفاتيح لخيالات مستحيلة.

كان عجوزان من آباء أو قل أعمام هؤلاء الأخوة، يقضيان الوقت فى المسامرة، وبعد صلاة العشاء فى زاوية المسجد الذى يتألف من ساتر من البوص المغزول بخيوط من الكتان، وفرش مكون من بضع قطع من فرو الأغنام والأبقار، يجلسان وتمتد بينهما المساجلات، فى مباراة بديعة ذات جاذبية خاصة، تجعل بعض الرجال والفتيان يلزمون مجلسهم لا يبارحونه،

رغبـة فى سماع مـا يصل إليه حـديثهم فى هذه الليلة أو تلك، وقـد يبقى الصغار فى المجلس فـتتحول الحكايا إلى نوع خـاص من الرواية كأن يقول صبى لأحد العجوزين: احك لى ياجدى حكاية الجسر.

ويقول العجوز: أشعلوا لنا النار أولاً.

ويسرع بعض الفتـيان لإحضار بعض القوالح الجافة، يـتعاون البعض لإشعالها بينما يعد البعض الجـوزة، ويخرج أحد الرجال قطعة من الحشيش من جيبه قائلاً: والله حظـكم فى أرجلكم، لقد حصلت على هذه القطعة اليوم بالمصادفة، قلت أنها ستصلح لمثل هذه المناسبة.

فى الحقيـقة هذه المناسبة هى مناسبـة يومية تقريباً، لكن الاحتـفاء بها يجعلهم يعاملونها كالمناسبات السنوية تماماً.

لم يكن جـاحظ العينـين يحس بمتعـة فى الحـياة كـما فى مـثل هذه الأمسـيات، بين العواجـيز، فكان ينطلق فى المسـاء إلى الزاوية ليجـالسهم ويستمتع بثرثرتهم.

وعندما تشـتعل القوالح بـالوهج الأحمر، وتبـدأ الجوزة بالدوران بين الرجال، ويأخذ العجوز النفس الأول ويكتمه ثم يطلقه مطلقاً خلفه سلسلة من السعال الجاف، يحكى العجوز حكاية الجسر:

- كنت فى الزمن الأول صياداً، ولم يكن يشق لى غـبار، فى الصيد لا صياد يبـارينى، أقف عند الجسر على رأس الترعـة أرقب المياه، وأصطاد بيدى العاريتين، وبالسنارة والشبكة، وعندمـا أضع الجوبية فى الماء فلابد أن آتى فى الصباح لأجدها مليئة بالطيبـات، آخذها إلى أمى فتشويها أو تقليها ونأكل نحن وبيوت الجيران، يومها كل بيوت الناحية تأكل معنا.

كان يحلو للعجـوز الآخر أن يعارضه دائمـاً، وكان هذا أحلى ما فى الأمر، فـإذا سكت ولم يعـارض، كان جـاحظ العينين يلقى بكلـمة تثـير المناقشة: هل عاصرت ذلك يا با على؟

ولم يكن آبا على يجد فرصة أفضل من هذه: عندما كان أبوك محمد يطعم أهل الناحية سمكاً؟

يبتسم جاحظ العينين بخبث: وهل كان يفعل؟

ـ كـيف تجـرؤ على تكذيب هذه الشـيـبة؟ لولا أنـها عـيـرة، ككل حكاياته!!

كان آبا محمد يختنق بالانفعال: أنت تعلم جيداً أننى كنت أفعل هذا، وكانت أمك تقول لك ألا ترى ما يفعل أخوك محمد، لماذا لا تفعل مثله؟

ويضحك آبا على: نعم، كانت تريدنى أن أطعم أهـل الناحية أيضاً، ولكن ماذا يفعل الآخرون عندما أقوم أنا وأنت بإطعام الجميع؟

يقول آبا محمد: طيب، ألا تذكر يوم اصطدت القرموط؟

ويقبل الجميع صائحين: احك لنا يوم اصطدت القرموط يابا محمد.

يتطلع آبا محـمد بانتصـار أمام رغبـات المستمـعين، وتدور عيناه فى حـيوية بين الجـميع، وهو يردد حكايـة صيـد القرمـوط: كنت واقفـاً عند الجسـر، وكانت معى سنارة كـبيرة، عندمـا شاهدت ذلك القرمـوط، كان طوله يصل إلى مكان بعيد، لقد مر أمامى وظل يمر وأنا مذهول فلم أر ذيله منذ رأيت رأسه إلا عند الظهر.

- يا مهول.

- أكان بهذا الطول؟

- هل رأى أحدكم مثل هذا؟

يرد آبا على مؤكداً: ولن يروا مثله أبداً.

- وبعدين يابا محمد؟؟

يكمل آبا محمد: عقدت العزم على صيد هذا القرموط، وكنت أنتظر كل يوم من الصباح إلى المساء عند الجسر حتى أراه مرة أخرى ولم أتوقف عن الانتظار ، فأين سيذهب هذا القرموط ؟ الترعة من هنا لهناك ولابد له أن يعّود يوما . بعد عام أو نحو ذلك رأيتـه آتياً من بعيد، فرميت السنارة، وانتظرت هادئاً، عند ما اقترب أعجبه الطعم فأقبل عليه، كنت قد وضعت له طعماً من الدود الكبـير الذى ظللت أربيه منذ عقدت العـزم على صيده حتى أصـبح فى مثل حـجم الثعبـان الدفان الكبـير، المهم غـمزت السنارة فرفعتهـا، لكن القرموط كان قوياً وثقيلاً فـشدنى، ظللت أشده ويشدنى، من طلوع الشمس حـتى الظهيرة، أنظر لعل أحـداً يظهر فيسـاعدنى، عند الظهر رأيت الولد عبود الأسود الذى مثل البغل آتياً فناديته، جاء يشد معى حتى استطعنا إخراجه، هل تعرفون كم بلغ طول هذا القرموط؟

ينظر الجميع باهتمام، ويقول آبا على: بالمتر أم بالذراع؟

يقول آبا محمد منفعلاً: كان طوله ونحن نجره بحيث أنه عندما وصلنا إلى بيتنا، كان ذيل القرموط لا يزال عند الترعة.

يقول آبا على: وماذا فى ذلك، لقد شاهدت فى حياتى ما هو أعجب من هذا، لقد كنت فى مصر ومررت بالنحـاسين فرأيتهم يصنعون آنية طعام نحاسـية ضـخمة، حـتى أننى مررت بعـدها بأربع سنوات، فـوجدتهم لا يزالون يعملون فى نفس الآنية.

يضحك جـاحظ العنيد ضحكـته العاليـة الصافيـة ، يضـحـك حتى القهقة ، بينما تصيب الدهشة بعـضهم ، ويسكت البعض الآخر متمعنًا فى الجوزة ، يعد الأدوار حـتى تصل إليه ، حتى البنا كـان يجلس فى صمت

يرقب ضحكة أبيه المجلجلة بعيون براقة ثاقبة ، أما آبا محمد فهو دائماً مصحح لما يقوله ابا على.

يقول آبا محمد متعجباً: ما هذا؟ هل تسخر منا؟ أربع سنوات يعملون في حلة واحدة؟

يرد عليه ساخراً: وفى أى شئ يمكن طبخ قرموطك هذا إذن؟

يقول آبا محمد: أنا لا أكذب، ولعلمك أنت المشهور بالكذب بين الجميع، ويعرفون سيرتك كاملة، وسيرة عائلتكم كلها.

يقول آبا على: وما لها سيرة عائلتنا يا سى محمد؟ نحمد الله على الذكريات العطرة التى تسير بين الناس عنا.

يقول آبا محمد وهو ينظر من طرف عينه: عطرة جدا، كسيرة جدتك مقطفة مع زوجها الميمون.

يلتفت جاحظ العينين وهو لا يكاد يتوقف عن الضحك: من تلك التى أكلت ذراع زوجها يابا على؟

لم يكن آبا على يحكى كثيرا عن جدته هذه، كان فى أغلب الأحوال يقابل هذا السؤال من جاحظ العينين بنظرة غامضة وابتسامة أكثر غموضاً ولا يجيب، حدث ذلك فى مرات قليلة جداً، مثلما كان فى تلك الليلة، وكان يحس يومها بشجن، كانت نظرته تحمل ذلك الشجن والحزن، كما يحدث مع مثل هؤلاء العجائز حين يتحدثون عن الذكريات الغالية. يومها كان يتحدث بصوت عميق كأنه آت من الزمن البعيد.

يومها ضحك آبا على وقال بصوت يحمل رنة عتاب: تلك كانت جدتى، كان ذلك فى زمن حفر البحر الكبير الذى يمر بالبلدة الكبيرة المجاورة، وكان الهجانة ينزلون إلى البلدة للبحث عن الفلاحين الهاربين

الذين يعـملون فى المـشروع، وكـانوا إذا دخلـوا إلى البلدة أسـرع كل إلى داره، وفى ذلك اليوم دخلت جدتى مقطفـة إلى السوق، وكانت تبيع ثمار المشمش التى تأتى بهـا من شجرتهـا التى زرعتها بـيديها فى حقل أبيـها، كانت جـدتى هذه من المهـابة حتى أن الرجـال كانوا يقـفون لهـا، وكانت ضخمة الجثة، لها ردفان لم أر مـثلهما فى الناحية، كنت فى طفولتى أنظر إلى ردفيها متعجباً، وكنا نحن الصـغار نسخر منه فيما بيننا ، كانت جدتى هذه قد تزوجت أولاً مـن رجل تكرهه، وكانت إذا خبطت رجـلاً بقبـضة يدها الممـتلئة يقع، فكان زوجـها يخـشاها . ما علـينا، جاء الهجـانة إلى السوق وهى جالسة، وكانت لضخامتـها لا تستطيع الجرى كما يفعل معظم من فى السوق عندمـا يأتى الهجانة. وقف الجندى على رأسهـا وقال لها: هاتى هذا المشمش ياامرأة.

لم يكن أحد يجـرؤ أن يناديها بامرأة سـوى زوجها، وكـان اخوها ـ خال والدى ـ يقـف غير بعـيد، صـرخت فى الجندى: المرأة هو أنت يابن الكلب.

قبل أن تنتبه كان قد رفع السوط ونزل به على ظهرها، لم يحدث أبدا فى حياتها أن ضـربها رجل سوى أبيها، عندما كانت طفلة صـغيرة، حتى زوجها لم يستطع يوما أن يضربها، فلما حدث ذلك غلى الدم فى عروقها، وبهت الجميع ووقفوا ينظرون، حتى أن اخـاها وقف مبهوتا لا يعرف كيف يفعل، لكـن حيرة الجـميع لم تدم سـوى لحظات فقد اندفـعت إلى جندى الهجانة وأمسكت ساقه بكلتى يديها وشدته وهو جالس فوق الجمل فأوقعته أرضاً. أذهلت المفاجأة والسرعة التى تصرفت بهما الجندى ، فلم يستطع أن يأخذ حذره . صرخ الجندى مـتألما ولابد أنه أصيب بكسر فى أى مكان من جسـده، لكنهـا لم تنتظر وانتزعت السـوط من يده وأهوت به عليـه، عاد يصرخ يستـعين بزملائه، ووجد أخوها نفـسه فى موقف سئ فأسـرع إليها

يعاونهـا، وحدث هرج ومرج كبـيرين، وانتشر الناس فى السـوق وتكالبوا على الهجـانة عندما رأوا المرأة وقد أهينت فلم تتهـاون فى رد العدوان عن نفسها. كان يوما مشهودا، استـرد فيه أهل القرية بعض كرامتهم الضائعة، وقتل الكثير منهم، لكن قتل الكثير من الهجانة أيضا، ولولا ستر الله لقتلا كلاهما ، جدتى وأخاها ، فى ذلك اليوم.

قال آبـا محـمد: لكن هناك المزيد عن زوجـة جدك هذه، ألم تحـبس زوجها فى الصندوق؟

ضحك جاحظ العينين حتى كاد يستلقى: كيف؟ بالله عليك أن تحكى لنا هذه يابا على!!

قـال آبا على: جاى لـكم فى الكلام، بعد هـذه الحادثة نزل الجـيش البلدة يبـحثون عن المرأة الـتى فعلت ذلك ولـم يدلهم أحـد عليهـا، راحوا يأخذون الناس واحـدا بعد الآخر، وكـان زوج مقطفة من خـارج العائلة، زوجها أبوها منه غضباً عليها عندما عصت أمره ذات يوم، وكانت تكرهه، وإذا عصى لهـا أمرا توسعه ضـربا، ولم يستطع أبدا أن ينجب منهـا. فلما وجد الجنود يبـحثون عنها دلهم علـى مكانها، تركهم خارج الدار، فـحتى دناءة عنصره ورغـبته فى الانتـقام مما تفعلـه به لم تكن لتدفعـه إلى إدخال غرباء علـى زوجته دون أن يطمـئن إلى حالهـا، فدخل يدعوهـا للخروج إليهم، كانت نبرته ساخرة وفهمت مـقطفة ما حدث، فأمسكت به وأدخلته فى صندوق ثيابها الكبير وأغلقته عليه بالقفل وغادرت الدار من باب الزريبة الخلفى، واتجهت إلى دار أبيها. بعد ذلك طلقها أبوها منه، وتزوجها جدى وكان ابن عمها. وأنجب منها أطفالا كثيرين منهم أبى.

عندما كان يتوهج آبا على كان يسـحب الربابة من مخلاته، ويبدأ فى العزف عليـها، وكان يروى قـصة الزناتى خليـفة، وقصـة عزيزة ويونس،

وأحيانـاً كان يعزف فقط، فـتطوف أصابعه بأوتار الربابة، ويصبح الجـميع متشوقاً للرقص على أنغام ربابة آبا على.

وكانت هذه اللحظة التى يقوم فيـها جاحظ العينين إلى الرقص، يقف فى وسط المجمـوعة، يضرب كـعبيـه ببعضـهما، ثم ينطلق، كـان يحاكى حركات الخيل، وتحليقات الصقور، ولم يكن يستطيع أن يجاريه فى الرقص سوى البنا، ابنه على أى حال.

كان البنا كأبيه، نحـيفاً كأبيه، طويل القامة كأبيـه، خفيف الشعر فى مقدمة رأسه، أيضاً كأبيه.

وضع آبا على الربابة إلى جواره وسكن . عاد الجـميع إلى مجالسهم ، وساد الصمت لحظات ، وأخيراً قال آبا محـمد بصوت يبدو آتياً من أعماق الليل :

- تعرف يا واد يا على ، أنت غلبتنى !!

بنى البنا بيتا بجوار بيت الـطيب، ولما كان لا يحب جوار البدين، ولما كان متعلقاً بالوراقة وبينما كـان حال أبيها كما نعلم، فلم يعد يُظن له زواج قريب، ولما كان اللئيم قد بادل البدين بيته الصغير بالآخر الكبير المقام هناك فى جـوار الحقول، لـكل ذلك حدث أنه لما جـاء البدين يعـرض على البنا تعويضاً لترك البيت، فقد قبل تعويضه، وترك له الدار، عائداً ليقيم فى دار والده، وكان الوحـيد الذى لم يقـبل ذلك هو الفارع الطالع، وقـد قال له البنا: لم لا ولـم يعد الجوار كما كنا نبغى؟

قال الـطالع: أنت لا تنظر بعيـداً بما يكفى يا بنا، البـدين يريد ديارنا لأمر لا أفهمه، ويجب أن أفهمه.

ساد الصمت جلوسهما فى الحقل الواسع حيث زرع جاجظ العينين زيتوناته، وحيث يجلس البنا كل يوم بعد العصر يصنع الشاى وينتظر مقدم والده، هبت ريح متكاسلة، ووقعت زيتونة سوداء على الأرض بالقرب منهما، قال الطالع: البناء شيئ جميل، والبانى قادر على الفعل، فلماذا لا تكن فاعلاً؟ لماذا، عندما ترى الغيمة، لا تشعل شمعة؟ لماذا لا تشعل ناراً؟

وقال الطالع للبنا: عندما تجلس لتستمع إلى الراوى فى الأمسيات، وعندما ترقص كالريح، كالخيل، كذبذبات الشعلة، كألسنة النار، عند ذلك أشعر أن النار ستشتعل فى الهيش كله، فلماذا لا تفعل؟

قال البنا: بل أفعل، إننى أقوم بالبناء..

وبعد صمت قليل عاد يقول: لو كان الأمر بحاجة للنار لأشعلت النار...

وقال أيضا: بل.. ولماذا أشعل ناراً فى الهيش؟

ألا ندع الهيش راقداً حيث هو؟ بما تحته من مستنقع؟؟

المحاولة الأولى للقتل

عندمـا تسـتعـد الشـمس لرحلة جـديدة فى الصـبـاح، ويملأ نورها الأرض، وتبـدأ قطرات الندى فى السـقـوط من فوق الوريـقات، يخـرج الأخوة كل إلـى غيطه، يحـمل فأسه أو يسـحب بقرته، أو يركـب دابته، كذلك الأخ الأصغر شاتل الأرز كان يفـعل كسلو أهل القرية، فى الصباح يصحو لدى الفجر ليجد امرأته قد أعدت الخبز الطازج، رائحته تملأ البيت، رائحة الجلـة المحترقـة فى الفرن أيضـاً لا تزال تملأ الجو، أصـوات الطيور الصائحة تنادى المرأة لتطعمها ككل من فى البيت.

وعندما خرج فى ذلك الصباح، كان ككل يوم قاصداً حقله، لم يكن يعلم بما يخبئه له الأخـوة المتربصون به خلف شجرة السدر الكبـيرة الواقفة على رأس الحقل، سـاق غنماته القليـلات وركب حمارته الفـتية وتبـعه أو تقدمه كلبه الأمين، كان الكلب فى الحقيـقة لا يهدأ ولا يركن، كثير الحركة فى الطريق، يجـرى أماماً ثم يـعود خلفاً، يجـرى ليسـبق الأغنام ثم يلف حولـها وكـأنه يريها الطريق، وعندمـا اقتـربوا من الحقل سـبقـت إحدى الغنمات تـتعجل الوصـول إلى العشب، جـرى الكلب نحوها ليـهدئ من روعها، عندمـا وصلت العنزة إلى شجرة التوت الكبيـرة القائمة على رأس حقل شاتل الأرز، توقفت فجأة وقالت فى صوت غريب:

- اهرب، فأخوتك متربصون بك يريدون قتلك.

لم ينتـبه الأخ الأصـغر فى البـداية، لكن الكلب توقف ليقـول نفس الشئ:

- اهرب، فأخوتك متربصون بك ليقتلوك.

كلما تقدمت إحدى الأغنام قالت له نفس الكلمات، قال هذا غريب، قبل أن تتفوه العنزة الأخيرة بنفس الرسالة كان الأخ الأصغر قد لكز حمارته العرجاء جاذباً مقودها يساراً بشدة، متجهاً بها إلى طريق العودة.

انطلق الأخوة خلف أخيهم، ما كـان أسوأ هذا، فهؤلاء الأخوة كانوا يريدون دائما أن يكونوا مثلاً فى التعاون والتـضامن كما نعرف منذ البداية، انطلقوا خلف أصـغرهم يرفعون أيديهم بما تحمل مـن أسلحة من فأس إلى شرشرة أو محشة أو خنجـر، ما هكذا تمنوا أبداً أن يكون مشهدهم أمام كل من رآهم، نظر البدين أماما وهو يعدو لاهثا، حامـلا فأسه، فوجد المسافة تبعد، والحـمارة الفتية تعـدو بنشاط، فجأة توقف، قائلاً: قـفوا يا أخوتى الأعزاء، ماذا نفـعل؟ لقد تمكن الشيطان منا جميـعاً، كيف وصلنا إلى هذه الحال؟ ماذا يقول والدنا الآن وهو فى تربته؟ أيحس بأية راحة أو سعادة فى قبـره وهو يرانا هكذا نتقاتل ويحـارب الكبير منا الصـغير، ما كـان هذا ما أوصانا به أبداً.

نظر الأخوة كل إلى أخيه، وتعجب اللئـيم فانسحب من لسانه قائلاً: ما أعجب هذا ! ألم تكن هذه دعوتك أنـت بالذات؟ أما كانت كلماتك أن هذا الأخ لا حل إلا الخـلاص من وجـوده، وأنه إن لـم يحـدث ذلك فلن تقوم لنا قائمة، ولن نتمكن من رفع رءوسنا بعد ذلك فى الناحية؟

خبط الأخ البدين على كرشـه صائحاً: أنا؟ أنا قلت كل هذا؟ يا أخى لا تفـترى على الكذب، كل منكـم يعلم أكثـر من غيـره كم أحب الخيـر لأخوتى جـميـعاً، وكم أريد مصلحـة هذه العائلة، لكن فـيمـا يبدو أنكم تنسون، وعندمـا تتذكرون تقلـبون الأمور رأساً عـلى عقب، لا لن يرضى الوالد بهذا الظلم أبداً، أبداً.

بهذه الكلمات التى كانت تنثال من فمه مختلطة بتهدج غريب، وممتزجة بدمعة ممتنعة فى عينيه، ومتلازمة مع أنفاس متلاحقة تزداد تلاحقاً مع كل حرف، حتى أنها تقطعت فى نهاية الكلمات وإذا بهذا الأخ الضخم يضع يده على صدره فى ألم شديد، ووقعت إلى جانبه يده الأخرى تحت ثقل الفأس الذى تحمله، وتتابعت آهاته، اندفع الأخوة إلى أخاهم العزيز، وهم فى أشد القلق:

– ماذا به؟

– ماذا تحس يا أخانا؟

قال الأكبر فى أسف شديد: هكذا أنتم، تقتلون القتيل وتمشون فى جنازته، أنتم السبب فى هذا، والآن ماذا نفعل وكيف نوصله إلى بيته؟ احملوه.

تمتم أحدهم قائلاً: أليس هذا صعباً؟ هل لديك فكرة عن وزنه كم يبلغ؟

وأكمل آخر: لئن حاولنا حمله لا نضمن أن يقع منا فى الطريق فيحدث ما لا تحمد عقباه.

فتح الأخ البدين نصف عينه بصعوبة وقال بين الأنفاس المتلاحقة: لا ياأخوتى الأعزاء، لن أكلفكم ما لا تطيقون، يكفى أن تسندونى وسوف أسير على قدمى حتى النهاية.

تقدم الفقير والساهى يسندانه، اتكأ على ذراعيهما وسار ببطء وهو ينهج، كان الطريق طويلاً وشاقاً، وكلما ساروا بضع خطوات طلب إليهم فى أدب أن يتركوه ليجلس قليلاً ويلتقط أنفاسه.

بينما الأخوة يسندون هذا الأخ المسكين المصاب يساعدونه فى الوصول إلى بيتـه، فكر اللئيم فى نفسه آنذاك: " هذا الدور لا يخـيل على أحد يا أخى العزيز، ولكن ماذا تقصد ياترى؟ هل رجـعت عما انتويت؟ غريب!! هل ترمى لإلصاق التهمة بغـيرك؟ من ياترى؟ كلهم الآن يتربصون بك أنت وفى انتظـار الخطوة التـاليـة لك، وأنا أولهم، ولا تظن أنك قـادر على خداعى، فأنا أدهى من عشرة مثلك."

وفكر الأخ الساهى: "ياللك من غبى، أضعت فرصتنا الذهبية، ولأى شئ تهدف؟ تصرفاتك غامضة وغير مفهومة."

وفكر الأخ الأكبر وارث العباءة فى نفسه: "يبدو أن البدين هذا طيب القلب فى النهاية، لقد تظاهر هكذا ليـوقفهم عن السعى وراءه، والله لولا أنى أعرفه لصدقت حكاية طيبة قلبه هذه."

وفكر الفقير فى حسرة: "انتهى المولد ولا حمص هناك، وأعود اليوم إلى أولادى مرة أخرى خاوى الوفاض، كيف لى أن أطلب من أخوتى شيئا بعد أن خاب مسعاهم؟"

بينما كان الأخ البـدين يتسند حينا ويستـريح آخر وينظر إلى كل منهم بنظرة كليلة متـفحصة: "آه ياأولاد الزانيـات، كلكم آثم، كلكم تتمنون أن تنشق الأرض وتبتلعنى، ولكن صبرا جميلا، فهذه نهاية أطماعكم الدنيئة، هذا الأخ الأصغر لن يكـون طعاماً سائغاً لكم، وإنما سـأتمتع به وحدى فى الوقت الذى أريد."

وبعد أن رآهم أهل القـرية يطاردون أخاهم الأصـغر، رأوهم يسندون البدين هذا، مـصمص الناس شفـاهم متعـجبين وضربوا أكفـهم ببعضـها وسبحوا الله العظيم.

عندما وصل الأخوة إلى دار البدين المجاورة لدار وارث العباءة، كان عدد منهم قد تسلل منصرفاً في الطريق، ولم يبق إلا أبناؤه وخمسة منهم وارث العباءة والساهي (الذي تحته دواهي) والفقير واللئيم، وبالطبع البدين نفسه، أدخلوه فتهالك على المصطبة الخارجية ودعا بغطاء. أقبل ابنه الأكبر بالغطاء بعد أن أتى به من الداخل وغطى والده الذي تمدد على المصطبة مرتعشا، قال الساهي للبدين الصغير: مر له بكوب من الينسون ليهدأ قليلا.

ذهب البدين الأصغر وقال والده بصوت خافت: لا تذهبوا، علينا أن نتحدث لأن ما حدث كان فشلاً ذريعاً.

قال وارث العباءة: إنما قد أخطأنا، وعلينا أن نقر بذلك.

قال البدين: أخطأنا، نعم.

قال الساهي الذي تحته دواهي بغيظ: أخطأنا؟ ومن السبب في هذا الخطأ؟ أما كانت فكرتك أن نضربه ضربة رجل واحد فلا يعرف قاتله؟

ارتفعت تنهيدة البدين وهو يحاول رفع صوته فلا يقدر: ماذا؟ أنا؟ أنت الذي قلت هذا فلا تفترى عليّ، أنا ما دعوت إلى مثل هذا الفعل الدنيء، ولتعلم، ألست أنت الذي قلت أنه السبب في موت أبينا؟ ألم يكن قولك أنت أنه هو الذي أوعز لامرأته بأن تخبر أبانا بشتله الأرز؟ وأن هذا كان السبب المباشر في موت الوالد؟ ألم تقل ذلك؟ أما جئت ـ باحثاً عن شئ يدينه ـ تسأل وارث العباءة عمن كان يلازمه أكثر الوقت في أيامه الأخيرة؟

قال وارث العباءة يحاول تهدئته: لا داعي لكل ذلك الآن، اهدأ يا أخي.

انتفض الذى تحته دواهى: ولماذا يسكت؟ ألا تتفقان الآن وهو يدافع عنك؟ أليس الحق أنك أنت الذى أوعزت إلينا بهذا الأمر والآن تلقيان به على رأسى؟

صاح البدين وهو يلقى بالغطاء جالسا: أرأيت؟ أما قلت لك أن هذه عادته؟

قال الأكبر محاولا كبح صوته: هلا تركنا النقاش فى هذا الأمر الآن؟

ثم بلهجة تآمرية: أنت متعب، هل نسيت؟

لملم البدين الغطاء حوله: لقد استرحت بما يكفى، ولابد أن نصل بهذا الأمر إلى حده الفاصل.

قال الذى تحته دواهى: حسنا، فلتعلم أننى ماقصدت قتله، وإنما كان كل ما أرغب فيه هو استعادة حقنا فى أرض أبينا التى استولى عليها.

وقال الأكبر: ثم أنه إذا كانت امرأته هى التى تلازم أبانا، فمن قال أنه أوعز لها بشئ؟

هنا، تحدث اللئيم، والذى لم يكن لئيماً أبداً فى هذه اللحظة: يا إلهى، كم أنتم أشرار، هل تريدون أن تهيلوا التراب على المرأة المسكينة التى لا حول لها ولا قوة؟

أصابت الدهشة الأخوة المتآمرين، وكأنما نسوا أن معهم آخرين، لكن البدين كان كعادته أسرعهم فى التقاط الأنفاس، التفت البدين إلى اللئيم: ماذا تظن بنا؟ لم يقل أحدنا شيئا من ذلك، إنما يبدو أنك لا تفهم الأمور على وجهها الصحيح.

قال الساهى: أما قلت لك ألا تتحدث الآن وأنت متعب هكذا، دع ذلك وادخل لترقد فى فراشك، ها قد أتاك ابنك بالينسون.

أعطى الفتى القدح لأبيه، وقال وارث العباءة: فلتشربه ولتدخل إلى دارك، أما نحن فعلينا أن ننصرف الآن ونؤجل هذا الحديث، وبعد أن تتحسن حالك، هناك الكثير من الوقت.

ألقى اللئيم نظرة شملتهم، لقد عرف أنه الآن لم يكن لئيماً أبداً، وإنما كان مغروراً، إذ لم يتصور أنهم نسوا وجوده ووجود الآخرين، التفت ليخرج، فقال البدين:

- أما من سلام عليكم؟

التفت قائلا بلهجة تهكمية: طبعا، ولكن عرفت أن وجودى لم يكن مطلوباً، فقلت أخرج بكرامتى.

قال الفقير: خذنى معك.

سار الفقير واللئيم فى ضوء الظهيرة القائظ، قال اللئيم: أرأيت أخوتك وما يدبرون؟

قال الفقير: لا شأن لى بكل ذلك، إنما أبحث عن طعام لأولادى، فهم كثيرون وأفواههم لا ترحم، لا تكف عن الطلب.

قال اللئيم: وممن تطلب الطعام يا ذكى؟ الحدأة لا ترمى الكتاكيت.

قال الفقير: أنت لست لئيماً يا لئيم، دعنى أذهب إلى أولادى، فلا يسلم الطريق.

افترقا، واتجه الفقير نحو الغرب، بينما اتجه اللئيم نحو داره فى الشمال.

عندما تكتم كل أخ عن أخيه ما حدث من أمور، وأخفى فى صدره ما يعرف، وأسكت فى قلبه الأسئلة، كانت هناك الوراقة وحدها هى التى لا تزال تسأل.

سألت الوراقة عـمها جاحظ العينين: لماذا كل هذه الجلبـة حول شاتل الأرز؟

قال جاحظ العينين: وماذا تظنين بالأخوة أعـمامك عندما يجتمعون؟ لا بد أن يكون أحدهم كبشاً لكى ينتظم العقد، ويطأطئ الجميع الرءوس.

قالت الوراقة: لا أفهم؟

قـال جـاحظ العيـنين: لا تشغـلى بالك، انظرى وأنت مكانك مـاذا يحدث.

قالت الوراقة: لكن رش الماء يصيبنا بالرذاذ!!

قال جاحظ العينين: نعم، ولهذا علينا أن نبتعد بالقدر الكافى.

قالت الوراقة: لا أظن ذلك يفيد كثيراً، فغداً يرشون الماء على مساحة أوسع، ولن يكون هناك من لا يصيبه الرذاذ.

قال جاحظ العينين: لكن يصعب منعهم!!

قالت الوراقة: الصعب ليس مستحيلاً!!

قال الحكيم للوراقـة: تلك الحكاية لا نهاية لها، لماذا هاجـموا أخاهم الأصـغر: ولماذا تراجـعوا؟ ومـا الذى يضمـرونه الآن؟ الأمر به أسـرار لا نعرفها.

قالت الوراقة: كيف يريدون ذلك بعـمى شاتل الأرز؟ اليوم أكتب ما حدث وأُقْرِئهُ للناس جميعاً، ليعرف الجميع من هو كل منهم.

قال الحكيم: افـعلى إن أردت، لكن الناس يرون الزبيبـة فى وجه كل منهم، فما تظنين أنهم يفعلون؟

قالت الوراقة: لا أعرف ماذا تقصد؟ لا أفهم!

قال الحكيم: عندما تبدو الزبيبة فى الجبـاه، فإن صاحبها يكون ممن لا يمس.

قـالت الوراقة: ومن قـال لك أننى أريد المسـاس بهم؟ إنما أرغب أن أعينهم على أنفسهم، أريد أن أوقظ عقولهم وأفئدتهم.

ابتسم الحكيم: هذا خيـر كثير ياوراقة، أكثر من اللازم فى الحـقيقة، الخير الكثير فى النفوس لا يدع مكانا لرؤية الشر.

قالت الوراقة: سأكتب هذا.

وقفت الوراقـة عند الجسـر، قالت: الحق لا يوقفـه الكذب، الكذب أعمى، الكذب أعمى.

وعندما مر البدين قال لها: عودى إلى دار أبيك، ليس لك أن تبحثى فى الحق والباطل!!

قالت الوراقـة: بل أقول ولا أكتم القـول، أبوح ولا أخفى، الكذب أعمى.

سار البـدين وتركهـا واقفة دون إجـابة، وفكر البدين: هو ذا الـلئيم يحاول أن يكون لئيماً، لكن يجب قص جناحيه الآن.

وعندمـا مر الساهـى أصابه الغضـب، وقال للوراقـة: عودى إلى دار أبيك، لا يليق بك الوقوف هنا فى عرض الطريق.

قالـت الوراقة: بل أقف حـيث أشاء، ليس لأحـد منكم أن يمنعنى، وأقول بملء فمى، الكذب أعمى، الكذب لا يخيل على الحق.

قال الساهى: لا تركبى رأسك يا وراقة، أنت صغيرة لا تفهمين!!

قالت الوراقة: إذن اشرح لى يا عمى ما لا أفهمه!

قال الساهــي: لن تفهمى، كل ما يجب أن تفــهمى هوَ أن تلزمى دار أبيك لا تبرحينها.

قالت الوراقة: هل هو تحديد لإقامتى؟

قال الساهى وقد فقد حلمه: افعلى ما أقول وإلا...

سكت ولم يكمل محاولا كبح غضبه.

قالت الوراقــة: وإلا ماذا ياعمى العــزيز؟ هل ستــحاولون قتلى كــما فعلتم مع عمى شاتل الأرز؟

ذهب الساهى ولم يرد، الوقت كان يمضى والوراقة لا تفهم.

قال أبو البنات للوراقة: زهرة البلد أنت يا وراقة، رغم أننى لا أرضى عنك تماماً، فابتعدى عن ذلك الذى يغضب أعمامك، وانتبهى لما عليك من العمل والإنتاج.

قالت الوراقــة: يا أبى لا أفهم شيــئاً، أريد أن أفــهم، لا أستطيع أن أبقى هكذا بلا فهم.

قال أبو البنات: لا يجب أن نفهم كل شئ، بعض الأشـياء علينا فقط أن نصدقها دون أن نفهمها!!

الفارع .. الطالع

كان الفارع فارعاً كـما النخيل، شجاعاً كسعفـاته القوية، جريئاً كلون ثماره، أسمر كجذعه الخشن، ذكياً كبادراته فى الربيع.

لذلك عندما طرق البدين باب داره ذلك المسـاء فتح له وهو يبتسم بلا فرحة، وبينمـا ظل واقفاً يحول بينه وبين دخـول داره قال له: لعلك تأتينى كما سبق وأتيت الآخرين، إذن فـاعلم أنه ليس كل الطير يؤكل لحمه، ولن تتـمكن أن تضعنـى بين فكيك، ولن أحط رأسى فى التـراب لأتزيا بزبيبـة كتلك التى تحمل أنت ومن معك.

بهت البدين وسكت قليـلاً، لكنه ما كان ليغلب بهذه البـساطة، قال باسماً: أهكذا تلقانى وأنا آتيك ببيتك؟

ازدادت ابتسامـة الطالع اتساعاً، وقال وهو يعقد ذراعـيه يسد المدخل بمنكبيه العـريضين وجيده الفارع: ما أنت ببـيتى، وما كنت لأدخلك، ولا لأعطيك فرصة كهـذه، أنت فى الطريق وأنا هنا، فإذا كنت فى الطريق فلا تتراجع، وإنما أكمل بلا تردد.

ثقل الأمر علـى البدين، لكنه أراد أن يتـمكن منه بأية طريقة، فـعاد يقول ليحرجه: أتطردنى من دارك؟

خرجت الضحكة من فم الطالع صافية لا حقد فـيها، فى الحقيقة كان الطالع كمـا كانت أمه، قاطعاً وشـجاعاً، وإنما بلا حقـد، قال الطالع: إذا كنت تحب هذه الفكرة فلا تتردد فى الثقة بها.

كان الرد مفاجأة كعادته، الحقيقة أن الطالع نفسه كان دائما مفاجأة.

ولد الطالع مفاجأة بعد أن كانت أمه قد كبرت وما عاد ينتظر منها إنجاب، وكانت بدينة كبيرة البطن حتى لم يشاهد أحد حملها، وكتمته هى، تتخوف أن يكون وهماً، فهى الزوجة الوحيدة من زوجات الأب التى لم تنجب ومع ذلك أبقى عليها، كان هذا غريباً لأنه قال يوم أن ورث داره من أبيه - جدهم الكبير - وكان ساعتها على فراش مرضه الأخير، وعدا لهذا الجد الأكبر: لأملأن دارك هذى بالبنين ولأجعلن منهم عزوة ملء السمع والبصر، ولأزرعن الأرض بعرقهم، ولأكونن أكبر من فى هذه القرية عدداً وثروة.

لكن أم الطالع لم تنجب لسنوات عديدة، كان الأب يقول دائماً: تزوجت كل تلك النساء لأفى بوعدى لأبى، أما هذه فقد تزوجتها لتريح قلبى.

كانت قريبة من قلبه لما تتمتع به من ذكاء وقدرة على السخرية، كانت تضحكه حتى النخاع، وعندما كان يبيت فى غرفتها كانت ضحكاته الصافية تملأ الدار، فكرهتها الأخريات. وامتلأن منها غيرة وحسداً، كانت غريبة عن القرية، ولذا لم تهتم كثيراً بكل تقاليدها، ولم تتخذ صديقة من بين الزوجات اللاتى كن يحسدنها على حب الأب لها، كانت تقول: عوضنى الله عن بعدى عن أهلى ودیاری رأفة رجلى وبره بى.

لكن الخوف من مرور العمر كان يهجس فى داخلها بين الحين والحين، فتتخذ من حجرتها ملجأ وتقضى بعض الوقت فى اكتئاب، ورغم ذلك فما أن يأتى الوالد ليبيت لديها حتى يتجدد أملها وتكاد تطير فرحاً.

مرت الأيام، كبر بها السن، كل يوم تقول لنفسها: الآن وإلا فلن يحدث أبداً. ولكن هيهات، بدأ الطمث ينقطع عنها فمات أملها، وكأنما كان الوقت حينئذ فقط قد حان، فبعد شهور كانت تحس الجنين يتحرك فى

بطنهـا، تشككت فى الأمر وانتظرت أن يبين الحق، فـكتمت حالـها، ولم تخبر أحداً، وفى الحـقيقة كانت بدينة لدرجة أن كل مـا لاحظته الأخريات عليها هو أنهـا قد ازدادت بدانة، حتى كانت إحـداهن تقول للأخرى: أين ستذهب هذه؟ تأكل مثل ثور وتزداد بدانة كل يوم، فمتى تتوقف؟

ربما كانت أم وارث العباءة هى الوحيدة التى خالجها شك، كانت الأم الكبرى تـنظر إليها مـن حين لآخر فى دهشة من مـظهرها، لكنهـا كذبت نفسها، وقالت: ليس لى إلا الانتظار، والخبر الذى هو اليوم بفلوس يكون غداً ببلاش.

وعندمـا جاءها المخـاض كانت جـالسة أمـام الفرن وبجـوارها تجلس الزوجة الكـبرى العجـوز ـ أم وارث العبـاءة ـ وكذلك أم الساهى، وبـينما كانت تلقى بأحـد الأرغفة من فـوق المطرحة إلى الفـرن، جذبت يدها فى عصبيـة وقامت واقفة تمسك بأسفل ظهـرها، نظرت المرأتان إليها، لم يكن معـتادا من هذه المرأة الـشكوى والتوجع من أى ألم، حـتى أنهن كن يقلن دائما أنهـا كما الجن، لا تمرض ولا تحس بوجع، وقالت الزوجـة الكبرى: ماذا بك يا امرأة؟ هل ركبك عفريت؟

قـالت أم الطالع، وهى لا تزال على وقـفتـهـا تلك: يبدو أنهـا آلام الوضع!

ضحكت المرأتان، وقالت أم السـاهى ساخرة: وضع؟ أى وضع؟ هل طاش عقلك ياولية؟

قالت أم الطالع: أحس آلام الوضع، وسألد الآن.

قـالت أم الساهى: مـا زالت تردد نفس الكلمـات، أمـا زلت تحلمين بالإنجاب بعد كل هذا العمر؟ أما انقطع طمثك يا امرأة؟

قالت أم الطالع وهى تخطو نحو حجرتهـا تسير ببطء متألمة، ولا تزال تضع يديهـا على أسفـل ظهرها: كنت أظنه انـقطاع الطمث، حتى تحـرك الجنين ببطنى منذ أشهر، وسألد الآن.

قالت العجوز وهى تتمعن فيهـا: هى تقول الحقيقة، لقد شككت فى أمرها وكنت أحيانا أقـول لنفسى هذا التغير فى وجهها يبـدو كوجه الحامل ولكننى كذبت نفسى، قومى ساعديها.

أسرعت أم الـطالع تدخل حجـرتها، وأسرعـت أم الساهى خلفـها، ورأتها عندما جلست القرفصاء وهى تلم ثوبها لأعلى، وإن هى إلا لحظات حتى ظهـر رأس الجنين أسفلها، مدت يـدها، وبيدها، بنفسهـا، أخرجت جنينهـا، وأم الساهى ذى اللحـية واقـفة لدى بابهـا تشهـد هذا بنفسـها، وقالت: لا حـول ولا قوة إلا بالله، لقد ولدت المرأة وحـدها، ولم نعرف لها حـملا من قبل، والله لولا أنى شـهدتها بنفـسى تشده من رحمهـا ما صدقت أنها حملت ولا ولدت.

قالت أم الطالع وهى لا تزال جـالسة والجنين بيدها والحـبل السرى لا يزال عالقا بها: لا تقفى هكذا كبغل عجوز، ساعدينى.

قالت المرأة بين الدهشة والسخرية: أسـاعدك؟ علام أساعدك؟ ها أنت قد ولدت، وماذا تريدين منى؟ ما من شئ آخر يمكن فعله!

نظرت إليها فـانتبهت من دهشتها، وقـالت وهى تتحرك: نعم، إليك ببعـض الثوب ضعى جنـينك عليه، وولد أيضـا؟ يافرحة الأب بمـا أثمرت بطنك، اقطعى الحبل السرى وهاتيه لأربطه له.

لكن أم الطالع ربطت له السرة بنفـسها، ولفته بـالثوب وجلست مرة أخرى لتخرج خلاصها، ثم قامت فأرضعـته، ووضعته فى فراشها، وتركته عائدة إلى الفرن لتكمل الخبز.

فى الجلسة المسائية قال الساهى ذى اللحية للبدين: كانت أمه تضحك دائما، عندما كنت صغيرا كنت أحبها، وكانت تعاملنى بلطف بالغ، لكن أمى اعتادت أن تضربنى كلما رأتنى أطلب منها شيئا، كنت أفعل ذلك ببساطة فقد كانت أقربهن إجابة، رغم بدانتها، لكن أمى لم تكن لترضى ذلك أبدا، وعندما رأت ذلك منها بعدت عنى، ولم أفهم، جئت أتمسح بها يوما وأطلب طعاما فربتت على ظهرى قائلة: اطلب ذلك من أمك، فهى أولى بخدمتك. فلما بكيت، ابتسمت برقة قائلة: هل أعد لك الطعام على ألا تخبرها بأننى فعلت؟ فرحت بذلك جدا، لكننى عندما كبرت ورأيت كم تتأذى أمى منها كلما كان أبى يبيت عندها، كرهتها، وكرهت ابنها، وكرهت أبى فى ليلة مبيته لديها.

لم تكن قد أنجبت الطالع بعد، وكانت تحب الأطفال كلهم، وحتى بعد إنجابها الطالع، ظلت تحب الأطفال كلهم، ولا تبخل بإجابة طلباتهم، لكن فى هذا الوقت كنت أنا قد كبرت وتعلمت أن أكرهها.

ورغم كل ذلك، فيوم موتها كان أشد علىّ من يوم موت أمى، ولم يحدث أبدا أننى بكيت إلا فى ذلك اليوم، هربت من المأتم والجنازة وأخذت طريقى إلى الهيش، ثم عبرته إلى الكوم حيث التيه، ودخلت فى التيه حتى لا يجدنى أحد، وهناك جلست وحدى، وبكيت ما شاء لى البكاء، حتى احتقن وجهى وذبلت جفونى فغرقت فى نوم لم انتبه منه إلا . .

كان البدين يسمع بانتباه وعجب، ورغم أن الساهى كان يبدو مسطولا، إلا أنه توقف هنا، وبدا وكأنه نسى ما كان بصدد قوله، وحثه البدين قائلا: متى انتبهت من نومك؟ ماذا حدث؟

نظر الساهى متضايقا: ماذا كنت أقول؟

- كنت تتحدث عن يوم ماتت أم إلطالع الفارع.

قال الساهى الذى تحته دواهى: وماذا يوم ماتت أم الطالع؟

- ماذا حدث فى التيه؟

رفع الساهى يده إلى جبهته يخبط عليـها بقوة، وأغمض عينيه قائلا: انس الأمر.

كان الطالع مفاجـأة، وعندما كبر كان مفاجـأة، طلع النخل مفاجأة، قال الوالد: هذا الولد مفاجأة، دعوه يطلع النخيل.

وهكذا كان.

صنع لنفسه حزاما من الجلد يجمعه والنخلة، يضعه حول جذع النخلة ويستند عليه بظهره ويصعد، ثم يرفعه لأعلى ويعود يصعد، حتى يصل إلى قمتها.

يطلع النخـلة، يأتى بالطلع، وينزل ثـم يبـدأ فى صـعـود النخـلات الأخـريات ليوزع الطلع عليـها، وعـندما تدور الأيام، وتثـمر النخـلات، وتتلون ثمارها بألوان حـمراء أو صفراء زاهية تخطف الـعين، يعود الفارع لطلوع النخل، يقطـع سبط البلح ويلـقيـها، نخلة بـعد نخلة، والأطفـال يتبعونه ليلتقطوا بعض الثمار التى تنفرط، الأطفال يتبعونه كما كانوا يتبعون أمه، ويتنادون: ها هو الفارع الطالع يطلع النخل.

كان الطالع يشـبه أمـه فى نواح أخرى، منها أنه لم يـنجب إلا طفلا واحدا، ولـم يحظ بود كثـير من زوجـات أبيه الأخـريات، ولا من بعض أبنائهن، لولا أن الأبناء عندما كبروا، أرادوا أن يظهـروا بمظهر الأخوة أمام أهل القرية الآخرين.

أما الطالع فكان زرعا وحيدا، كالنباتات الغريبة التى لم يزرعها أحد، ولما انتهى يوم الجماعة الأول بالفشل الذريع لم يقبل على الذهاب إلى يوم الجماعة الثانى، فرغم العدد الكبير الذى حضر هذا الاجتماع السرى فقد كان يعرف، وكان يسمع من موقعه فى بيته معظم التآمرات المرسومة، وقد كان الطالع الفارع يستطيع الرؤية على بعد كبير، وعندما رأى الزبيبة قد بدأت تظهر فى جبهة وارث العباءة عرف أن الأخ الأكبر قد أراح رأسه على كتفى الساهى والبدين، ولذا تأكد أنه غير قادر على الدخول فى الجماعة، فلم يشارك فى المؤامرة، ولم يخرج على أخيه الأصغر حاملاً فأسه.

اكتفى الطالع بطلوع النخلات، يأتى بالطلع، ويعود إلى الأخريات يلقحها، وعندما تطرح النخلات بلحها يجمعه، ويغسله فى الترعة، ثم ينشره ليجف، وتأكل القرية التمر طوال العام من يدى الفارع الطالع.

وهكذا كان الطالع لا يقول، إلا فى حالات قليلة حين يفيض به الكيل، وربما حتى حينئذ لا يقول، فحتى يوم صرخة الوراقة كان ـ مثله فى ذلك مثل كل من بالقرية ـ لا يقول، وقد يفعل فقط، بل الحقيقة أنه لم يكن يفعل فى الغالب، اللهم إلا فى ذلك الأمر الخاص بالبيت، وكان الفعل الوحيد الذى أصر عليه هو ألا يبيع.

وفى هذا الأمر كانت له أسباب، وكان يراها قوية.

فلما كان أن طرد اللئيم من الدار الكبيرة التى أخذها من البدين عوضا عن داره، عرف اللئيم أنه لم يكن أبدا لئيماً، ودار فى بيوت البلدة يبحث عن جوار فلم يُجِره أحد، وفى النهاية فتح له الطالع بابه وقال: كن عندى حتى يكون لك بيت آخر.

لم يكن هناك من سبيل بعد أن أضاع بيته وبعد أن طُرد من البيت الكبير وأدار الجميع ظهورهم له، إلا أن يبنى بيتاً جديداً، جاء البنا سائلاً

أن يبنى له داراً، وفكر البنا: ولم لا؟ ربما نبنى لك داراً فى الهيش!! فهناك متسع للجميع.

وكان فى الهيش بعد ذلك عمل كثير، وحوارات أكثر، وربما جاء اليوم الذى جلس شاتل الأرز والطالع يتجاذبان الحديث، كان شاتل الأرز يبدو متعباً، وكان الطالع يمتلئ حماساً، ويحلم بمستقبل جميل، ويحادث شاتل الأرز، ربما فقد بعض الحرص عندما قال له يوما ما قال.

يقول الطالع لشاتل الأرز: عندما يبدأ الأمر بأنهم يقولون لك اسمع، تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينك، أن الوالد رحمه الله ولا يجب أن نتحدث عنه بغير ذلك، فإذا قلت أنك توافق على ذلك ثم نسيت يوماً أن تلتزم به أهالوا عليك التراب، فإذا فعلت شيئاً قالوا لك لم يقل الوالد هذا أبداً، فإذا قلت لهم أن الوالد لم يكن يعرف ما تدور إليه الأيام، قالوا أنك قد أسأت ونسيت أن تتلو الرحمة على والدك، فإذا قلت لهم جل من لا يسهو، قالوا ذلك من أمر الشيطان، فلما تسلم لهم بهذه البداية يقولون لك، حسنا، من الثابت والمتعارف عليه والموصى به والمذكور فى المتون أنه لا تجوز على الميت إلا الرحمة، وقد قال الوالد رحمه الله أن الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة. فإذا زدت من مجاراتهم على ما هم فيه من طغيان لم يبق لك إلا أن تنسى معاشك وزرعك وأهل بيتك، لتتأسى بالترحم على الوالد، رحمه الله.

وربما كان مثل هذا الحديث الغبى من الفارع الطالع أحد الأسباب التى أدت إلى أحداث جسام، ولكن شاتل الأرز كان من أصحاب الثروة فى النهاية، ولم يحتمل الحياة فى الهيش طويلاً. لكن هذا أمر آخر وسنرجئ الحديث فيه حتى نعرف كيف وصل شاتل الأرز بحماس شديد البراءة إلى الهيش.

الخلاص - الفقير

كان الأخ الأصغر قد قطع شوطاً طويلاً، توقف ينظر حواليه، فوجد أنه قد وصل إلى أطراف البلدة، وبالقرب منه بيت أخيه الفقير، أما ناحية الغرب فقد وقفت فيها، بينه وبين الأفق البعيد، مقابر البلدة، حيث يقبع أبوه، الذى أنجبهم جميعاً، هؤلاء الذين يأتمرون به اليوم ليقتلوه، ترجل من على ظهر حمارته الفتية، ربت على ظهر كلبه الأمين، واستند على جذع شجرة الكافور العجوز، والتقط بعض أنفاسه.

خلف الكافورة العجوز كانت تمتد أرض واسعة من الأعشاب العالية النامية فى مستنقع، بجعل ينظر إليها، وقال فى نفسه: لو كان لدى هؤلاء عقل، أما كان من الأفضل أن يصلحوا هذه ويزرعوها بدلاً من الطمع فى أرضى، ألا تصلح هذه لإنتاج الكثير؟ لكن الإنسان قد لا ينظر إلا إلى ما فى يد أخيه فلا يرى ما تحت قدميه من الخير.

جلس تحت الكافورة العجوز، ينتظر الظلام حتى يستطيع الحركة، وهو يفكر فيما عليه أن يفعل، الآن إما أن يترك البلدة بما فيها ومن فيها، يهرب بامرأته وجلده من مصير لا يعرف نهايته، أو يبقى ليجاهد عدواً جاهلاً، أو أخاً جاهلاً، كلاهما سواء.

من أين يبدأ؟ بين أشعة الشمس الغاربة، وظلال نهاية اليوم الذاهب، بدا خيال مقدم عرف فيه أخاه الفقير يتجه إلى بيته، وقف يلوح له فتلفت حوله يخشى أن يراه أحد، قال له: أإلى هذه الدرجة تخشى وأنت الذى رفعت فأسك اليوم على تبغى قتلى؟

لم ينبس الفـقـير، بل وقـف ذاهلاً لا يعرف مـاذا يفـعل أو أى شئ يقول، قال الأصغر: أريد منك أن تأتى بـامرأتى لكى لا أتركها وحدها فى الدار هذه الليلة، أخـشى أن يحاولوا الغـدر بها وهى امـرأة وحيـدة قليلة الحيلة.

قال الفـقير هامسـاً لنفسه: قل ياقـرد أى شئ يمسخونك؟ مـاذا تأخذ الريح من الشراقى؟ لماذا لا أكون شجاعاً مرة واحدة، لن يضيرنى شئ، لا مال لى ليأخذوه، لا أرض ليستولوا عليها، لا ثياب تنفعهم، ولا محصول يحرقونه، فـقط سيذكر أحفـادى كم كنت جباناً أو شجاعـاً، سأخزيهم أو أرفع رءوسهم، ثم إن عشائى كان دائماً على الله.

قال: يا أخى أحضرها، لكن ماذا تنوى وإلى أين تهدف؟

قال شاتل الأرز: والله لا أعـرف حتى الآن، لكن أريدها بمأمن حتى أفكر فى هدوء.

قال الفقـير: ادخل إلى دارى، سآخذ امرأتى معى حـتى نأتى بها فلا يشك أحد فى وجودك عندى.

قـال شاتل الأرز: ألا تخـشى أن يجـدونى فى دارك فـتعـاقب بما لا ترغب؟

همس الفـقيـر: يا أخى أنت أعلم بما فى الأمـر، فأنا لا أسـتطيع أن أقاوم طلباً لهم، هم أكثر عدداً وعدة، ويمكنهم أن يقطعوا عيشى وأنا رجل فقير كثير العيـال، أعمل تحت إمرتهم، عيالى يريدون الطعام، ولا أستطيع أن أمنعه عنهم، لا أقدر أن أقاومهم، لا أقدر.

ضحـك الأصغـر بمرارة: قال أبى يومـاً، ليس هناك فقـر، هناك قلة رأى، يا أخى لديك كل هذه الأرض تطل عليـها كل صبـاح وتترك غـيرك يملكك؟

نظر الفقير حوله، وقال بمرارة: أتظن لو أننى أصلحت هذه الأرض وزرعتها أأكون بمنأى من طمعهم؟ ما حالك اليوم وقد ملكت أفضل أرض وأوسعها؟

- وهل أنت اليوم بمنأى منهم؟ ماذا بك؟ ألا تعقل أى الأحوال أصلح؟

- النتيجة واحدة على أية حال كما يبدو، فلماذا التعب؟

- النتيجة ليست واحدة على أى وجه من الوجوه، فحالك حال العبيد، أما الحال الأخرى فهى حال الأحرار.

الطعام من أين يأتى، هذا هو السؤال، قال الفقير لنفسه: أخى هذا عنده حق، ماذا يكون لأولادى منى عندما يكبرون؟ ثم ماذا يكون منهم اليوم؟ لو أعطيت كلاً منهم فأساً فى الصباح لزرعنا بعض هذه الأرض فى أيام قليلة، ولذاقوا من عمل أيديهم فى موسم واحد، لكن السؤال هو ماذا يفعل أخوتى الآخرون عندما يروننى أزرع بنفسى، لن يرضيهم أن يفقدوا خادمهم الأمين، سيكون هناك لغط كبير.

قال: هل تعيننى على زراعة هذه الأرض ويكون لك فيها؟

ضحك الأصغر: الأفضل أن تستعين بأولادك ولا تستعين بى، فقد أصبحت لعنة لا تفيد، المهم الآن أن أحاول المقاومة.

قال: أعنّى على زراعة هذه الأرض وأنا أقف بجانبك فلا تكون فى محنتك هذه وحدك.

فكر الأصغر، من الطبع أن اثنين أفضل من واحد، فإذا كانا معاً فسيكونان أكثر قوة، ولكن أمام عدد كبير كهذا من الأخوة.. ما الفارق؟

ما الفارق؟

قال شـاتل الأرز: فآت بأبنائك، وفى اللـيل سنخرج معنـا فؤوسنا، نقلع الأعشاب، وفى الصـباح تحملونها لبيعـها فى السوق فتشتـرون بثمنها طعاماً وتقاوى، نزرع كل يوم ما نعـده حتى لو كان قليلاً، سنعمل بلا كلل حتى لا نضيع وقتاً.

وفكر قليـلاً، ثم قال: لا تأت بامـرأتى، سأذهب أنا إليـها، لابد أن الخطط قد تغيرت الآن لديهم ولن يفكروا فى قتلى الآن حتى يعيدوا ترتيب أمورهـم، على أن أنتهز هذه الفرصة لأعد العدة لهـم.

عندما فتح الصـباح عينيه، رأى الأخ الأصغر مع الفـقير وأولاده وقد خلعوا الحـشائش من مـسافـة عشرة أذرع على الأقل، وبعـرض يزيد على خمسة عشر ذراعا داخل الهيش.

وعندما ابتسم الصباح مظهراً سنه الذهبية كانوا يستريحون وقد وضعوا مناجلهم وفئوسهم جانباً.

مرت الوراقـة بجوار الهيش، فألقت تحـية الصباح، دعـوها فجلست بينهم، قالت لهم: ما أجمل ما تفعلون، هل أساعدكم؟

قال شـاتل الأرز: يا ابنة أخى، أنت تعـرفين دائما أنه مـرحبـا بك، ونحن نحتاج مـساعدتك، لكن الزمن الصعب قـد يجعل من ذلك أمراً لا يفيدك، بل قد يلقى بك فى أمور لا تحبين الخوض فيها.

قالت الوراقة: لماذا يا عمى؟ الخير هو الخير فى كل وقت.

قال شاتل الأرز: بكل أسف، ليس فى كل وقت يا وراقة.

مر البـدين راكباً حمـاره، نظر إلى ما فعلوا، وبسـمل، بالأمس كان الهيش أرحب واليوم يضيق، صـدق ظنه أن الأصغر لن يجد من يقف إلى جواره سوى هذا الفقير الغبى.

قال ضاحكاً: أخى العزيز الأصغر، أبحث عنك منذ الأمس.

قال الأصغر دون أن ينظر: أوليس هناك عمل يشغلك قليلاً عنى؟

ازدادت ابتسامة البدين وهو يربت ظهر حماره: أخى، ألا تعلم كم أقلق بشأنك؟

قال الأصغر بلا تردد: أعرف ذلك جيداً، ولهذا فأنا شغلك الشاغل فى هذا الأوان.

تلفت البدين حوله مرة أخرى: فماذا تفعلون؟

قال الأصغر وهو يأخذ لقمة من الجبن القديم الذى أتت به امرأة الفقير: كما ترى.

رفع الفقير فأسه ليريحه فوق كتفه ناظراً أمامه، ورأى أرض الهيش التى تعرت، قال: تلك بداية.

قال الأصغر: بل تلك هى البداية.

قال البدين ضاحكاً: رميت بنفسك فى الأتون يا فقير، فمن سيأتى أولادك بالخبز الليلة؟

قال الفقير: الله يتولانا!

قال البدين: وأنت يا وراقة، مالك وهذا؟ لم لا تبقين فى بيت أبيك؟

قالت الوراقة: ماذا يضيرك يا عمى لو كان لصاحب العيال أرضاً تستره؟

قال البدين: لا يضيرنى ذلك فى شىء، لكن هذا الهيش ملكى، وكنت أنوى أن أقوم بزراعته؟

أكمل الأصغر مضغ طعامه، ثم قال: الهيش متسع، ويمكنك أن تأخذ منه ما تشاء.

وقالت الوراقة: وفى الهيش متسع للجميع.

قال البدين: عمــوما هذا طيب، فأنتم كما أرى ستــوفرون على الجهد والتعب.

بهت الفقيــر، هذا ما لم يعمل حســابه فى الحقيقة، قــال وقد داخلته خشية: ماذا تقصد؟

نظر الأصغر نحوه: لاترد عليه!

قال الفقير مرتاعاً: ولكن ألا ترى أن كل ما نفعل سيكون هباء؟

قال الأصغر: لا يمكن أن يكون الخير هباء.

قال الفقير: أنت إذن ترى معه أن أعمل ويأخذ جهدى.

قال الأصغر: يا أخى لن يأخذ أحد جهدك ما لم ترد أنت ذلك.

قال الفقير: أنت تتحدث هكذا لأنه ليس لديك ابن تخاف تشرده.

قال الصــغيــر بألم: يا أخى صدقنى، لدى كل هؤلاء الأبــناء أخشى عليهم.

وأشار بذراعيه إلى أولاد أخيه، وإلى الفضاء الرحب حولهما.

ضحك البدين وهو يدير رقبة حماره بحركة من عصاه القصيرة: كدت تقتل بالأمس، فكيف بك اليوم لم ترتدع؟

ارتعدت الوراقة عند هذه الكلمات، واحتضنت الأطفال فى صدرها، وقالت: ها أنت تقول ما لم تقله بالأمس.

قال البدين ساخرا: أنت تضعينني فى موقف صعب يا وراقة، لماذا تحضرين فى هذا البكور؟ ولماذا تقفين هنا بينهم؟

والتفت إلى شاتل الأرز قائلا: لم لا تجيب؟

قال الأصغر: ها أنت تسفر عن أنيابك، لكنى سأجيبك كما تشاء، عليك أن تعرف أننى إنما أحاول أن أصل إلى الحق.

علت ضحكة البدين عما قبل: وماذا ترى أنه الحق؟

نظر شاتل الأرز فى وجوه أبناء أخيه المتحلقين حول الجبن الأسمر، ينظرون إليه ينتظرون ما يفوه به، قال بهدوء: الحرية والسلام، هذا هو الحق.

لكز البدين طرف ساقه ليطرد ذبابة تائهة: وماذا فيما تعمل يؤدى إلى الحرية، وهو بالقطع لن يأتى لك أو للفقير بأى سلام؟

وهز ساقيه حول بطن الحمار، فانطلق عائداً.

لم يكن الأخ الأكبر هو الشريك الدائم لجلسات هذين الأخوين المسائية، ولا أى من الأخوة الآخرين، كانت تلك الجلسات يقضيانها فى التدخين والحكى، وكان كل منهما يبدى مقدرته فى الحكى خاصة عندما يعمل الدخان والحشيش المحلاة به أحجار المعسل عمله، ينظر الأخ البدين إلى أخيه الثالث فى إعجاب قائلاً: يالك من داهية، كيف توصلت إلى هذه الفكرة المذهلة؟

كان الأخ الثالث فى أغلب الأحيان يغضب بسرعة، ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة له، فكما قلت لكم قبلاً، كان يفكر هكذا: الأفضل أن آخذهم بالسوط فلا يمكن لأحد أن يغلبنى.

لكن فى أحيان قليلة، كان يحس ببعض الكسل إزاء إبداء رد فعل كهذا، وكان هذا فى الغالب الأعم عندما يعمل الحشيش عمله فى دماغه، ويحس بذلك الخدر اللذيذ ولا يصبح قادراً على أى فعل من شأنه أن يعكر صفو أفكاره التى تبدأ حينها تحوم حول أم العيال، يذكر أنها ربما تكون نائمة الآن، لكنه سيوقظها وقتما يعود على أى حال، وستمتثل لطلبه، فقد علمها أن ذلك من أهم واجبات الزوجة المؤمنة، فإذا هى لم تفعل لعنتها الملائكة من فوق سبع سماوات، وكانت فى الحقيقة تخشى لعنة الله كثيراً مما كان يثلج صدره دائماً، ماعلينا، المهم أنه فى ذلك الوقت، وعندما سأله هذا السؤال، وكان ذلك فى أعقاب الشجار الذى كاد يحرق كل شئ بينه وبين وارث العباءة، والذى انتهى بقرار التخلص من شاتل الأرز، لم يرد الساهى على أخيه البدين فوراً، وإنما نظر بتأن، وحاول أن يفكر بشكل أكثر هدوءاً، ثم سأل ببطء: أليست هذه هى المرة الثانية التى توجه إلىّ فيها

هذا السؤال بالتحديد؟

تعجب البدين، ورد قائلاً: هذه هى المرة الأولى التى يـخرج فيها من فمى.

قال الساهى فى تعجب: هل تعنى أننى أتَبَلّى عليك؟

لمَ يكن الأخ البدين راغباً بالمثل فى أية شجارات، وخاصة بعد أن بدا بينهما ما يشبه التصريح بأن مصالح كل منهما تلتقى مع مصالح الآخر.

تمتم البدين قائلاً: اسمع، بينى وبينك، هذا ما فعله الوالد رحمة الله عليه، أليس هو من فرق بيننا هكذا ولم يعـاملنا سواء؟ بل جعل منا الغنى والفقير والقوى والضعيف والمثقف والجاهل وذا الحرفة والصايع، أضف إلى ذلك زواجه من عـدة نساء والذى جعل منا الأبيض والأسمـر وذا العاهة، ومن يتفاخر بأخواله ومن يخجل منهم.

لم يتحمل الأخ الثالث أكثـر من هذا، بل كاد هذا الكلام يتسبب فى طيران أثر المخدر اللذيذ، وكان لابد من توضـيح قاطع، ولذلك فقد قاطع أخـاه قائلاً: اسـمع أنت، بداية يجب أن نتـفق مـعاً أن الوالد تجب عليـه الرحـمة أولاً، ويكون هذا منطلقنـا، فإن اتفـقنا على هذا المبدأ الأسـاسى يمكننا بعد ذلك أن نتناقش فيما لا يمس ذاته بسوء.

صفـق الأخ البدين فـرحاً: أنت رائع، هذه يجب أن تكون الـصيـغة الأساسية، وأنا أوافق على ذلك بالعشرة، لماذا يا أخى العزيز لم تعلن ذلك منذ البداية، بهذه الطريقة يمكننا أن نسيطر على كل الأمور.

هذا الغباء الذى كـان يبدو به أحيانا البدين كان هو أشـد ما يضيق به الساهى، فقد كان يفكر أن البـدين هذا سوف يكون ساعده الأيمن، فكيف يكون وهو بهذه السذاجة، هز رأسه نافضاً فكرة أنه قد يضطر يوماً للتعامل

معه بشكل مختلف، ربما مثله مثل الآخرين تماماً. لكنه عاد فقال لنفسه: لماذا لا أنظر إلى الجانب المشرق، فهو يصلح لأن يكون قائداً طيباً.

ثم عاد وفكر، ونحن الآن نعرف كيف يبدو حين يفكر: وهل يصلح للقيادة؟ ألا ينقلب إلى ما يصلح له تاركاً كل ما نريد وهكذا يصبح حاكماً لنا أيضا، نحن الذين اصطنعناه؟

وعاد يفكر في نفسه أيضا: هناك من يصلح للقيادة بشكل أفضل ويقبله الجميع، وارث العباءة هو الحاكم الطبيعي على أية حال، لا أظن أنه سيأتي اليوم الذي نحتاج لغيره، أو على الأقل ليس ذلك قريبا جدا، فهو لين، ويسهل التعامل معه، ألا يكون وارث العباءة أقرب؟ وهم يستمعون إليه ومن السهل قياده.

كان ذلك في هذا الوقت المبكر بعد موت الوالد، وتلك كانت بعض حالات هذين الأخوين، ولكن كانت هناك حالات أخرى، كذلك اليوم الذي سبق شراء البدين لهذا البيت البعيد الذي يلتقيان فيه الآن، كانت الجلسات القديمة تتم في بيت أحدهما، ويشوبها حذر وتوجس أكبر، كان الساهي في أسوأ حالاته، وكان يحس بتدبيرات غريبة بين البدين واللئيم، يومها جلس مضطجعا فيما يقارب الرقاد، ونظر إلى البدين نظرة خالية من المعنى، أو حاول أن يجعلها هكذا، شد من فم الجوزة نفساً طويلاً، وقال ببطء: ماذا يفعل اللئيم هذه الأيام؟

لم يكن البدين من محبي المفاجآت دائما، ومع ذلك فقد أجاب بثبات: أظن أنه وجد ملجأ عند الطالع، وربما يبحث عن مكان يبني فيه بيتا جديدا.

قال الساهي بنفس الصوت الخالي من اللون: مشغول إلى هذه الدرجة؟

ظن البـدين أن هذا الأخ يكثـر من الإصـرار على ذكر اللـئيم، قـال بحدة: ومن قـال لك أننى أعرف عن اللئيم كل أخبـاره؟ هل قيل لك أننى وصيفه أو وكيله؟

قال الساهى الذى تحـته دواهى باسماً وساخراً: بل قـيل لى أكثر من هذا.

هدأ البدين قليلاً، هل يترك نفسه للغضب، تسلـلـت ابتسامة خفيفة، وقال ببطء: كل ما قـيل لك صحيح، اللئيم أخى وعـلى أن أتحمل كل ما يشكو منه، بل وأن أدير له خدى الأيسر.

ضحك الساهى: أثلجت قلبى، كنت أظن الغضب يعميك.

- الحـقـيقـة أنه يحـدث لى هذا أحـيـاناً، وهذا مـا يجـعلنى أبادر بالاعتذار.

هكذا كانت بعض أمسياتهما، والبعض الآخر، كذلك اللقاء بعد وقفة الوراقـة على الجسـر؛ كان شـديدا. فى تلك الليلة كـان الساهى فى أشـد حالات الضيق، وعندما عمل الحشيش فى رأسه، بدأ يفضفض.

قال الساهى: من يأتينى بالغادر؟

قال البدين: ولماذا الغادر؟ ما حاجتك إليه؟

قال: هو يقدر.

قال: ولماذا لا نقدر نحن؟

قـال الساهى: تبـدو عليك البـراءة، وأنت تطالب بالمقدرة، اسـمع، تعرف أنه لا يبدو أن الغادر يحفل بالقيود التى تكبلنا، ولهذا هو يقدر.

قال البدين: عن أية قيود تتحدث؟

قال الساهي: لم يكن الغادر أخاً لنا، ولـهذا فلن يحفل بما يفعل ضد أحد منا، وأخوك الأصغر واحد منا، والوراقة ابنة واحد منا، أليس كذلك؟

قال البدين: يالك من ابليس، لكن فـلتعلم أنه لا يهـمنى ما تفـعل بشاتل الأرز، أمـا الوراقة فـلا، إنها صـغيرة، ثم هـى امرأة، لا يجب أن نفعل شيئا بامرأة.

- ألم أقل لك أن الغادر لا تكبله القيود التى نضعها لأنفسنا؟

سادت لحظة صمت، فكر البـدين ما الذى يمكن أن يوقف جشع هذا الأخ، ولكنه هز كتفيـه قائلا: أقول لك أنها امرأة وفتاة صـغيرة، لا تحاول إيذاءها.

أحس الساهى أنه انزلق إلى المحظور، وكـان دفاعـه التقليـدى الذى يجيده دائماً هو الحل، قـال الساهى: كيف تقول هذا؟ أتظن أننى يمكن أن أسئ إلى امرأة أو غيرها؟

بدأ يعود إلى حالة الغـضب التى يستخدمهـا فى الغالب فى مثل هذه الأحوال: ثم كيف تتـهمنى بشئ كهذا؟ ألا ترى أنك تجـاوزت معى حدودا كثيرة؟

لم يبهت البـدين بهذا الكلام، ولا انتـقلت إليه قصـة الغضب هذه، وإنما أجاب بمنتهى الهدوء: لا داعى لأن تسـتخدم هذه الطريقة معى، أنت تعرف أنه لا أحد يعرفك كما أعـرفك، ولا أحد يمكن أن يتحمل أن يعرف حقيقة نفسك.

زاد الساهى غضبا: كيف تجرؤ. . .

قال البدين مقاطعا: قلت لا داعى لهذه اللعبة، أنت تعرف كما أعرف أننى أفهمك تماما، وأنك تفهـمنى كذلك، وأنه لا مبرر لأن ندخل الآن فى

مثل هذه الحال التى سوف تؤدى بنا إلى الخراب، لكننى أكرر عليك أنه لا يلحق بالوراقة ضرر، ولتعلم أن الكثيرين يهتمون بها.

هدأ الساهى قليلا متسائلا: الكثيرين؟

قال البدين: بداية والدها وأنت تعرف ثقله، ثم جاحظ العينين يحبها ويهتم بها، وربما يتمناها لابنه، والبنا نفسه يهتم بها كثيرا، وأظن أنه واقع فى غرامها، ثم الحكيم، فهى تلميذته المقربه إليه، ولا تستثن وارث العباءة فهو يراها ابنة له منذ كانت تأتى إلى بيته للمساهمة فى العناية بجدها، وشاتل الأرز، يعتبرها من أقرب الناس إليه لتفهمها موقفه ووقفتها معه، ولأنه كان من أكثر الناس قربا منها منذ طفولتها، حيث يتقاربان فى السن. أما الطالع...

قاطعه الساهى: وأنا أيضا أهتم بالوراقة، ألا تعرف أننى كنت أتمناها أيضا لابنى؟

رفع البدين حاجبيه: أيهم يا حليم؟

قال الساهى: وما زلت أريدها، بل وسأذهب الليلة إلى أبيها، وسأحادثه بشأنها.

ابتسم البدين: لا بأس، بل هى فكرة رائعة، ربما يمكنك بذلك أن تحتوى الوراقة وتتفادى جنونها.

لم ينطق الساهى بكلمة أخرى فى هذا الأمر، قام واقفا، وألقى تحية مقتضبة، واتجه خارجا.

ولا نعرف فى الحقيقة هل كانت هذه المناقشة، أم ما تلاها بعد خروج الساهى من أحداث، هو ما أدى إلى ما حدث للوراقة، لكن ما حدث فى تلك الليلة هو أن الساهى لم يذهب إلى أبى البنات كما كان عازما، فقد جد فى الطريق ما جعله يعيد التفكير فى الأمر.

وعلمنا التاريخ والقصص المروى أن الأخ الأصغر دائماً مارق، كاسر للتقاليد والأعراف، هادم للجدران السد، يختار تلك السكة التى هى "طريق الذى يروح فلا يرجع".

كانت الظلمة تحيط بالطرقات فى القرية، لكن الصوت لا تعوقه الظلمة كما نعلم، فهو يخترق ستائرها، وينفذ بين جنباتها، توقف الباهى عندما أحس بتلك الخطوات تتبعه، التفت خلفه متطلعاً، تبدى له شبح غير بعيد، توقف قليلا يحاول أن يتبينه، اقترب الشبح بهدوء، سرت رجفة لا معنى لها فى بدن الساهى، وبدأ المخدر يتبخر من جسده، لقد كان ذلك الشبح يبدو على هيئة شاتل الأرز.

الأمر يدعو إلى الحيرة فى الحقيقة، فلو رفع صوته الآن لتجمع الناس ويمكنه أن يدعى أن شاتل الأرز كان يحاول الاعتداء عليه، وهكذا قد يكسب بعض الناس إلى صفه، لكنه يستطيع أيضا أن يقتله فى صمت ولديه خنجره الذى لا يفارقه، وفى هذا الظلام لن يراه أحد، لم يسعفه الخدر الباقى فى جسده بحسن التصرف، فآثر أن ينتظر ما يسفر عنه الموقف.

قال شاتل الأرز بصوت طبيعى تماما وكأنما لا شئ بينهما: ليلة طيبة يا أخى العزيز، أين كنت فى هذا الوقت من الليل؟

سار الساهى على نفس النغمة: والله كنت أتمشى، بلا هدف، وأنت؟

قال شاتل الأرز: أنا أيضا خرجت بلا هدف فى الحقيقة، ولكن.. كأنه كان موعداً بيننا، أليس كذلك؟

تظاهر الساهى بابتسامة صفراء خبأتها الظلمة، فقد كانت بلا صوت، وكان يتساءل: خيرا، هل تريدنى؟

ابتسم شـاتل الأرز فى الظلمة، ابتسـامة تسمع ولا ترى: لا أسـتغنى عنك، فى الحقـيقة كنت أحتـاج أن أتحدث وأفضفض بحالـى إلى أخ أكبر يسدينى النصح ولا يجاملنى.

ما هذا الكلام، بدأ ذهنه يصحو أكثر؛ الأمر لا زال بحاجة إلى بعض التفكيـر، هل يراجع شاتل الأرز نفـسه؟ لا مـفرٍ من القبـول ولو ظاهرياً: تحدث بما شئت، فأنا أخوك الأكبر لا زلت.

سارا متـجاورين، مضت لحظات صمت، ثم قـال شاتل الأرز: كنت أفكر ماذا أفعل، فى الحقيقة..

توقف للحظة تردد، حسمها الساهى: أنت تعرف ماذا يجب أن تفعل !!

رفع شاتل الأرز يده: لو تنتظر قليلا، ستسمع رأيى.

عاد الساهى يقول: رأيك نعرفه جميعا!!

قـال شاتل الأرز: ليس الأمـر كمـا تظن، لقـد كنت أفكر فى الأيام القليلة الماضية فيـما صرت إليه وصار إليه حالنا، وعندمـا ذهبت مع الفقير إلى الهيش لأساعـده فى إصلاح بعض الأرض ليقوم بزراعتهـا ويوفر طعام أبنائه منها، جعلت أفكر بشكل أفضل، ورأيت أن الأمر قد لا يتعدى خطأ فى توزيع الأرض بيننا، عندى من الأرض الكثـير، أعنى أننى أعـرف أنها أكثـر مما أحتـاج، وربما يحتاج غـيرى إليـها، أنت مثـلا يا حليم، أرضك صغـيرة، صحـيح لديك منحل، لكنه لا يكفى بالطبع وأولادك كثـيرون، بينما أنا لا أولاد لى، فـما الداعى لكل هذه الأرض، والتى أصبحت عـبئا على كـاهلى بعد شـتلى الأرز، وخاصـة بعد أن تنكر الـفقيـر لى رافـضا الاستمرار فى إصلاح الأرض، حقيقة أن أولاده لا زالوا يحاولون، ولكن المشاكل ثارت بينهم بسبب هذا الأمر حتى أننى ندمت على محاولتى هذه،

وعرفت أن الأرض ربما تكون لعنة ونقمة كما أنها نعمة، فما الداعى للإكثار منها، يكفى ما يقيم حياتك، أليس كذلك؟

قال الساهى فى تردد: ربما، إلى أى شئ تريد أن تصل يا شاتل الأرز؟

قال شاتل الأرز ببطء وتؤدة: لذلك كله، ولأسباب أخرى لا مجال للحديث عنها الآن، وباختصار شديد، كنت أفكر فى ترك بعضها.

كان الساهى يستمع بصبر، لم يفكر أبدا أن شاتل الأرز سيصل إلى هذه النتيجة، فلما وصل إليها لم يستطع الساهى أن يمنع لعابه من أن يسيل ككلب جائع رأى لقمة طازجة، لكنه قال بحذر: ماذا تعنى؟

ـ أعنى أننى لو اضطررت إلى التخلى عن محصول الأرز، فلا مفر من التخلى عن جزء كبير من الأرض، ربما أبيع بعضها، ويكون ذلك عوضا عن خسارتى فى الأرز، أنت تعرف أننى لا أريد أن أغضب الوالد، رحمه الله، ولكنى لن أجد مشتريا بسهولة فى هذه الأيام، فمن يشترى فى هذه القرية؟ الناس إما لا يملكون، أو يملكون أكثر مما ينبغى، وأنا من هؤلاء الذين يملكون أكثر مما ينبغى، فما الحل؟

كان الساهى لا يزال مأخوذا، ولا يستطيع أن يفهم إلام يرمى أصغر الأخوة: فعلام عزمت؟

قال شاتل الأرز: عزمت على أن أترك أرضى لمن يشاء زراعتها.

سكت قليلا ليلقى إليه بما يريد وما يلف حوله طوال الوقت: وفى الحقيقة فكرت أنك أنت الأولى بأكبر نصيب فى هذا.

ابتلع الساهى ريقة بصعوبة، وخرج صوته مختنقاً: ماذا تقصد؟ هل ترشونى؟

واصطنع ضحكة صفراء.

تبادل شاتل الأرز معه الضحكة التى لا معنى لها، ثم قطعها فجأة ليقول: بل إننى أطلب مساعدتك، لكى لا تزيد خسارتى كثيرا، أليس كذلك؟

وفيم تريدنى أن أساعدك؟

قال شاتل الأرز بصوت عميق ملئ بالغموض: فقط تتحمل معى هذه الأرض التى ناء بها كاهلى.

قال الساهى محاولا إخفاء فرحه: أتحمل معك ما تشاء، أنت أخى الأصغر وعلى حمايتك.

قال شاتل الأرز: فلو شئت تأخذ خمسين فداناً من أرضى.

قال الساهى فى دهشة: أتعنى ما تقول؟

- بالطبع، هل رأيت منى فيما سبق تخاذلاً فى أى أمر؟

قال الساهى: لا والله، لكن هذا كثير بالفعل !!

قال شاتل الأرز: فغداً أشهد الجميع على ذلك.

قال الساهى: لا، بل انتظر قليلا. ويبدو أنك قد لجأت إلى العقل يا شاتل الأرز، وعلى الجميع أن يفعل مثلك، أنا أيضا كنت أفكر فى الأيام الأخيرة فى معنى ما قاله الوالد، وربما أنه لم يكن يعنى تحريم الأرز، وإنما مجرد المفاضلة، ولكن الأمر لا يزال بحاجة إلى بحث كما تعلم.

ابتسم شاتل الأرز فى قلبه، ولكنه تصنع الهم: فانظر متى تشاء ذلك، فقد قررت وانتهيت.

قال الساهى: فبعد أيام، تظهر حقيقة الفتوى، وفى نفس الوقت، تهب الأرض لكل من أخوتك الثلاثة الكبار.

ويخبث لم يسبق له أن جربه بهذا السفور، أظهر شاتل الأرز دهشة: ولماذا؟ لا يحتاج لا وارث العباءة ولا البدين أرضا، أنت الذى تحتاج إلى ذلك!

قال الساهى بابتسامة أوسع خبرة فى مجال الخبث: ولكنك ستعطينى نصيبا أكبر، أليس كذلك؟ لكن الأمر لا يخلو من استرضاء لأخويك الأكبرين، فهمت؟

هز شاتل الأرز رأسه: فهمت، عشرة فدادين لكل منهما، ألا يكفى هذا؟

قال الساهى: بالطبع يكفى.

قال شاتل الأرز: ولك خمسون فدانا لن تنقص سهما.

وكانا قد وصلا إلى بيت الساهى، أما شاتل الأرز فلا يزال أمامه طريق طويل بين البيوت الواقعة فى غرب القرية.

وهكذا، وعلى عكس ما تأتى به الحواديت، اختار الأخ الأصغر طريق السلامة.

ساد الحزن الكثيرين وساد الفرح الكثيرين. فقد كان الأمر يبدو هدنة طيبة فى القرية، لكن الطالع قال لشاتل الأرز: ألم أقل لك لا تهادن؟

قال شاتل الأرز: لا مفر من المهادنة.

قال الطالع: ألم أقل لك أنك ستفقد الكثير بالمهادنة؟

قال شاتل الأرز: هكذا أفقد أقل، صدقنى.

وقالت الوراقة: كيف نتخلى عن الحلم؟

كانت الوراقة لا تزال تحلم، وظلت تحلم حتى النهاية.

الورّاقة

همست زهور البردى للوراقة:

لماذا لا تصنعين الورق من سيقانى؟

لم تعرف الوراقة كيف تصنع الورق.

سارت الوراقة فى الحقول وعلى شط الترعة تسأل الطيور والحيوانات عمن يعرف، تسأل الزهور والفراشات، قالت خنفساء الحقول للوراقة:

- إننى أحب جاحظ العينين، وأظن أنه يعرف كل شئ فى هذا العالم.

سألت الوراقة: أين عمى الآن؟

تمايلت أعواد القمح الخضراء، وهمست للريح:

- يذهب جاحظ العينين إلى الزاوية فى المساء ليسمع الراوى.

قالت الوراقة: لكن العصر لم ينقضِ بعد.

لاحت الشمس خلف سحابة شتاء بيضاء، وغمزت بعينيها نحو بستان الزيتون.

قالت الوراقة: نعم، قد أجده هناك!

طلعت الوراقة على بستان الزيتون، رأت العم فى جلسته تحت شجرة زيتون شابة يجلس أمامه البنا، يضع البنا الجمر فى الجورة ويصنع الشاى لنفسه ولأبيه بعد عودته من عمله أياً كان ما يعمل، ثم يذهبان سوياً إلى البيت.

طلعت الوراقة على العم وابن العم جالسين يشربان الشاى ويستدفئان تحت الزيتونة، جلست الوراقة وتناولت كوب الشاى الذى قدمه لها البنا.

سألت الوراقة: ياعمى، كنت أسأل عمن يعرف كيف يصنع الورق؟

قال جاحظ العينين: لاأعرف، ولكن ربما كان الحكيم يعرف.

وقال البنا: عندما أبنى أضع اللبنات فوق بعضها، كل طبقة باتجاه مختلف، وربما لا يكون الورق يختلف عن ذلك كثيراً.

قالت الوراقة: ربما فعلاً، ولكن الطمى يتماسك سوياً، أما سيقان البردى فهى ملساء، فما الذى يعطيها التماسك؟

قال البنا: عندما أريد صنع اللبنات، فإننى أترك الطمى مبللاً بالماء فترة ليتعطن، هذا يعطيه فرصة تماسك أفضل، ربما يصلح ذلك أيضاً مع سيقان البردى.

قالت الوراقة: ربما فعلاً، ولكن اللبنات صلبة، أما سيقان البردى فهى مليئة بالمياه، فما الذى سيعطيها شكل الصفحة المنتظمة؟

فكر البنا: عندما أضرب الطوب فإننى أضغط الطين ليتخلص من بعض مائه، ربما لا يكون البردى يختلف عن ذلك كثيراً.

قالت الوراقة: ربما فعلاً، ولكن الطين قابل للتشكيل، أما سيقان البردى فلا، فما الذى سيعطيها شكل الصفحة المنتظمة؟

قال البنا: ربما عليك أن تفكرى فى هذا وحدك قليلاً.

خجلت الوراقة: ربما فعلاً.

قضت الوراقة زمناً تتعلم، وزمناً آخر تصنع الورق، حتى أصبح لديها صف من الورق، فكرت: على الآن أن أذهب إلى السوق مع أخواتى.

جلست الوراقـة فى السوق تضع أمـامهـا صفـاً من الأوراق صنعتـها بيديهـا، لكن النهار أوشك على الانقـضاء وما باعت ورقـة واحدة، بدأت السوق تخلو من روادها، وعند الغروب انفضت ولم يبق إلا الوراقة جالسة ما باعت ورقة واحدة.

فى غبـشة ما بعـد الغروب رأت ظلاً طويلاً يتـقدم باتجاههـا، رفعت رأسها، وهناك وقف الحكيم بثوبه الأسود الـبالى، قال الحكيم: هل تبيعين أدوات المعرفة؟

قالت الوراقة: إنما هى مجرد أدوات، أما المعرفة فبأيدى الحكماء.

قال الحكيم: بكم تبيعيننى هذه الأوراق؟

قالت الوراقة: بأى شئ تشترى به.

قال الحكيم: لكنى لا أملك ما تشترى به الأشياء.

قالت الوراقة: لا أطلب شيئا محدداً، اعطنى مما أعطاك الله.

قال الحكيم: لا أملك غير الكلمات.

قالت الوراقة: اعطنى مما أعطاك الله.

قال الحكيم: بيت الظالم يخرب، حتى لو بعد عام.

قالت الوراقة: بعتك بهذا.

حمل الحكيم الأوراق، وقامت الوراقة عائدة إلى الدار.

كانت السوق قد خلت من روادها، نظرت الوراقة إلى الأفق والقرية البعيدة، وتذكرت الطريق الخالية الطويلة، والطاحونة المسكونة تقطعه فى الظلام، قالت فى نفسها: عندما أعبر الهيش، أختصر الطريق.

يختبئ الغادر فى الهيش، كانت الوراقة جميلة وفتية، قال الغادر: تلك المرأة أحلى لى الآن من أية امرأة أخرى.

عندما قصدت الهيش، ابتسم الغادر لنفسه: جاءت برجليها.

وعندما اقتربت منه مد يديه إليها.

قالت: من أنت يا ذا الآتى من رحم الليل؟ كيف تضع يدك علىّ وما رأيتك من قبل، ولم تكن ابن عم لى؟

قال الغادر: إنما أنا ابن عم لك ولكنك لا تعرفين من أنا.

قالت الوراقة: دعنى، لأعود إلى دارى.

قال الغادر: ما عادت لك دار فى القرية، فلتكن دارك هنا معى، أريدك وأرغب فى الدخول إلى رحمك، أراك جميلة وفتية، ابقى هنا حيث أبقى وتعالى نستمتع معا بلحظات الليل الطويل.

قالت الوراقة فزعة: لكنى لا أريدك أيها الغريب، فدعنى أرجع إلى دارى.

قال الغادر: بل أدخل إلى رحمك كما أشاء، ليس هناك من يمنعنى منك.

قالت الوراقة: صرختى ستأتى بأبى وأعمامى وأبناء عمومتى، سينالون منك ويمنعونك من الغدر بى.

ضحك الغادر: هذا حلم بعيد، انظرى، أبواب القرية قد أغلقها الظلام وما عدت تستطيعين الدخول، ليل القرية أنت لا تعرفينه، نباح كلاب القرية يعلو وصرخاتك تضيع هباء، تعالى إلىّ، فما عاد بى صبر عليك، ارغب فى الدخول إلى رحمك، وأرغب أن أغرس بذرتى بتربتك، ولتنبتى لى ولداً يكون لى ساعداً ورفيقاً فى ظلام أيامى.

قالت الوراقة: لن تتمكن من الغدر بى.

شقت صرخة الوراقة ليل القرية الساكن، قال جاحظ العينين لأبنائه: اليوم يغتال الغادر الخير.

وقال الفارع: هل أطلع إلى أعناق النخيل لأستطلع الأفق المظلم؟

وقال وارث العباءة: من ذا الذى يصرخ فى هدأة الليل؟

وقال البدين: ذاك الصوت آت من الهيش، ما لنا به من شئ.

وقال الساهى الذى تحته دواهى: من ذا الذى يسهر الليل فى غير صلاة؟

وقال أبو البنات: ذاك صرت الوراقة، أين هى؟

وكانت الربابة تئن بين يد أبا على، وهو يروى:

"قال له دياب

ما أصل النهاردة حولى تقال

على إيدى مجرد زناتى

النهاردة اللى عليه الرمل قال

رايح اغدرك يازناتى

رايح اغدرك يازناتى"(*)

وقال البنا: الليلة لا يمكننى الرقص.

يوم مضى، وأيام أخرى وما عادت الوراقة إلى دارها، وما عرف أحد أين هى، وما استطاعت أن تهرب من ظلمة الهيش لأشهر كثيرة.

جذب الغادر الوراقة إلى عمق الهيش حيث المستنقع الكبير، وفى وسط المستنقع على جزيرة صغيرة وسط المياه الراكدة لملم بعض سيقان السمار النابت فى الهيش من قمتها وربطها، وأفرغ ما بينها من السيقان ومهد الأرض، وقال للوراقة: تعالى هنا، هذا بيتى.

لم تتحرك الوراقة، فأمسكها وشدها إلى داخل البيت.

وبعد أيام استطاع أن يسرق بعض الفرش لأرضية البيت وفرشه وقال للوراقة: ها هو غدا كأحسن البيوت فى القرية.

لم تستطع الوراقة عبور الهيش، فقد انقطع الطريق، واختفى الدليل، وروعها الغادر، وأمرضها البلل وأقعدتها الرطوبة، وأصابها اليأس إلى حين.

فى كل صباح يأتى الغادر من ليلة طويلة، لأن ليله كان للصحو، ونهاره للنوم، بعد أن يخلد إلى النوم عند ظهور البارقة الأولى لنور اليوم الجديد، تخرج الوراقة تستطلع الطريق، تخطو بين الأعشاب والوحل،

(*) السيرة الهلالية، مقتل الزناتى خليف، الشريط الثانى (الشاعر جابر أبو حسين) .

تنظر إلى بيوت القرية من بين الأعشاب وتبكى ما أصابها، حتى رآها الغادر ذات يوم فخشى أن تجرؤ، وعندما ألم الظلام مـرة أخرى قال الغادر: هيا، ستخرجين معى!

قالت الوراقة: لا أخرج معك، لا صالح لى بما تفعل.

قال الغادر: بل تأتين، فلن نعود هنا مرة أخرى.

قالت الوراقة: وأين تذهب بى؟

قال الغادر: أعددت لك بيتا أفضل!

قـالت الوراقة: كـيف تسكن البـيوت، أنت لا تسكن إلا الخـرائب، الديار لا تعرفها، ففى الديار الأمان، وكيف تعرف الأمان؟

ضحك الغادر: نعم، ولهذا سنسكن خرابة أخرى.

عندما دخل الغـادر والوراقة إلى التـيه، وضع غمـامة على عينيـها، وسار بهـا فى دهاليز كثيـرة، وفى النهاية سمح لهـا بالرؤية، لكن لم يكن هناك رؤية، فقد كان الظلام يلف المكان.

لأيام لم تعرف الوراقة عددها ظلت حبيـسة التيه، لا يمكنها الخروج، كل يوم يعود الغادر يـبحث عنها فى الدهاليز حتـى يجدها تحت جدار فى الظلام منهارة تبكى.

حتى كـان يوم حانت لهـا أشعة خـافتـة بعيدة فـاتجهت إليـها، وفى لحظات كانت خارج العتمة، كـان الظلام فى بدايته، ولا يوجد سوى ضوء النجوم الخافت وبعض بصيص من ضـوء المصابيح يأتى من القرية، الظلام يلف الهيش والقرية والكوم، استنشقت الهواء النقى، وسارت نحو القرية.

كانت تحمل طفلا على ذراعها.

خرجت من التيه فى ظلام ليلة لم يطلع قمرها بعد، قالت الوراقة وهى تنفض عنها بقايا القش والتراب:

- أريد أن أغسل قدمى، لأن قدمى متسختان.

وقالت الوراقة:

- أريد أن أغتسل فى ماء النهر فأطهر.

خطت الوراقة إلى دار أبيها تحمل طفلها، خرج الأب فى الظلام من نومه ونظر، وقال: ما جاء بك؟

قالت: إنما جئت إلى دارى.

قال أبو البنات: ما عادت هذه دارك، تحملين عارك وتدنسين الأرض الطاهرة، عودى من حيث أتيت.

قالت الوراقة: إنما ظُلِمت ياأبى وغُدِرَ بى، لم أفعل ما استحق به العار والدنس.

قال أبو البنات: هل تحمل المرأة من الريح كالزهور؟ فى الأمر خيانة كبيرة.

قالت الوراقة: إنما هو ظلم وغدر، وأنتم تنظرون.

قال أبو البنات: ما انتظرت من بناتى يوماً إلا كل خير، أتين لى بالخير والمقدرة، امتلأت دارى زبداً وعسلاً، ولم تعصنى إحداهن يوماً، إلا أنت، كنت تصنعين الورق من سيقان النبات النابت على ضفاف الترعة، وعندما تجلسين لبيعه لا ترجعين بمال، وإنما ترجعين بكلمات طيبة، كيف لنا أن نأكل ونلبس الكلمات الطيبة؟ كنت أردد لنفسى دائما ما قاله لى الوالد يوما أن البنت فى أولها شماتة وفى آخرها حسد، ولكن ها أنت كنت شماتة فى الأول وفى الآخر.

قالت الوراقة: كانت الغازلة تغزل وكنت أغزل، ولكنى كنت أغزل الكلمات، وكانت النساجة تنسج وكنت أنسج، ولكنى كنت أنسج ما غزلت بنفسى، وكانت الحائكة تقص وتحيك، وكنت أفعل ذلك مع غزلى ونسجى، لكنى ما كنت أبيع، كنت أعمل بمقدار ما يعملن، لكن لم يكن هناك من يشترى عملى.

قال أبو البنات: جلبت لى العار.

قالت الوراقة: إنما هو ظلم وغدر وأنتم تنظرون.

قال أبو البنات: الظلم مدفوع والغدر مرفوع، والعار هو الباقى.

قالت الوراقة: إنما هو ظلم وغدر وأنتم تنظرون.

قال أبو البنات: الربوة التى شهدت ظلمك والغدر بك، تشهد غسل عارك، احملى حملك، وانطلقى إليها فى هذا الظلام، حتى ألحق بك.

قالت الوراقة: ما أسهل أن تنظروا الظلم والغدر فلا تدفعونه، وما أسهل أن تغسلوا العار، أعلم أنك سوف تدفننى مع طفلى فى تربة الربوة، لكن هذا لن يضيرنى، لأن بدنى سيتحول إلى الأشجار والزهور فيعطيها.

خرجت الوراقة من بيت أبيها، لحظات مرت بها لا تعرف أين تتوجه، فكرت فى جاحظ العينين، عمها، وعندما كانت تسير كانت ترى جدران الدور من حولها تنظر إليها، سرت رعدة الخوف فى بدنها وأسرعت خطاها.

وعندما وصلت إلى ساحة القرية بزغ القمر مكشراً عن أنيابه، قالت الوراقة لستائر الليل:

ـ لماذا الخيانة؟

برز شبح من خلف كل دار يتجه نحوها، مدت ذراعها لتتشبث بأستار الظلام، واحتضنت الطفل بذراعها الأخرى، وأسرعت الخطى.

وعندما رأت شجرة الكافور العالية بأوراقـها السوداء الكثيفة، بأوراقها التى صـارت أشد سواداً من اللـيل نفسه، تقـف أمام دار جاحظ العـينين، نادتها: هل ترين ما بى؟

اهتزت وريقات الكافور هزة خـفيفة مع نسمات شحـيحة لليلة صيف حارة، قالت الكافورة العجوز للوراقة: فلتختبئى فى ظلامى.

عندما التفت الوراقة بظلمة الكافورة أطلت الأشباح حائرة، ثم عادت تختفى خلف الجدران، دفـعت الوراقة باب السور ودخلت، خرج البنا من الدار متسائلاً: من هناك؟

وقفت الوراقة ترتعش، وعندما رأت ابن عمـها عرفت أنها تحبه، وأن الظلمة التى اجتازتها كانت كلها فى الطريق إليه.

وقال ابن العم للـوراقة: ماذا حـدث يا أختى لتخـرجى إلينا فى هذا الليل المريب؟ وما هذا الذى تحملين؟

طلع جاحظ العينين من الغرفة الأخرى، وخـرج الآخرون جميعاً إلى صحن الدار، وجعلوا يتأملون الوراقة الواقفة فى مكانها لا تزال لدى الباب تحمل طفلها، وقد اصفرت بشرتها هلعاً وارتعش بدنها، عيناها تنتقلان بين وجه البنا ووجوههم، ولا كلمة.

وكأنما يرى لأول مرة، قال البنا: ما هذا الذى تحملين ياوراقة؟

قال جاحظ العينين بغضب مكتوم: تسألون وكأنكم لا تعرفون.

تعلقت عيناها بشـفتيه، وابتـلعت ريقها، وتهاوت، أسـرع البنا يأخذ طفلها، وأسرع عمها يسندها، ويدخلها إلى الدار.

وقال جاحظ العينين: جاءت الوراقة إلى دارنا لأنها تحتاج المجئ الآن، وما علينا سوى أن نفتح صدورنا ونحميها أياً كان ما أتى بها.

انتبه الجميع، وبدأوا يتحركون حركة سريعة، بسرعة كانوا يغلقون باب الدار، ويهيئون للوراقة مكاناً تريح فيه، وضعها عمها على الفرش، وأتى لها البنا بقدح ماء، وضع جاحظ العينين يده مبتلة على جبينها الملتهب، تابعت تنظر إلى طفلها يحمله البنا، قال لها: لا تخشى شيئا يا وراقة، طفلك أحمله، وأكون أميناً عليه حتى تقدرين على حمله.

هدأت الوراقة واستكانت، وأغمضت عينيها.

وقال جاحظ العينين لأبنائه: لتبق ابنة عمكم في دارنا ما شاء لها البقاء، ليس لأحدكم أن يسألها عن شئ ما كان، وليس لأحدكم أن يتحدث عن وجودها في بيتنا إلا إذا شاءت ذلك بنفسها، لتبق حتى تريد الرحيل، مهما طال الوقت فهو كفيل بشفاء نفسها، فإذا رغبت في يوم ما بالحديث فلتتحدث.

كانت الأيام تمضى والوراقة جالسة في مكانها ترضع طفلها، كانت أحياناً تبكى بصمت، وأحياناً تنظر إلى الأفق من خلف النباتات الكثيفة في سور البيت الخلفي، وعندما كانت الليالى مقمرة كانت تزداد أحزانها، وبمرور الوقت كانت دموعها قد نضبت، وبدأت عيناها تستعيدان البريق، وعندما كان طفلها يخطو ويلفظ أولى الكلمات، كانت البسمة الحزينة تتسلل إلى وجهها، حتى كانت ليلة ـ والبرد قد دخل الدور ـ جلست الوراقة بين عمها وأولاده في صمتها الذى عهدوه منذ قدومها، تحلقوا بحول النار في صحن الدار، وجعل البنا يدفن ثمار البطاطا في الجمر المتوقد، كان السكون سائداً حتى أن الوراقة عندما تكلمت كانت كلماتها شديدة الوضوح، رغم الصوت الخافت، قالت الوراقة:

عندما دخلت إلى الهيش لم أكن أعـرف أنه هكذا سيكون ما ألاقى، لكننى اليوم وقد هربت من التيـه لا أريد العودة، وقد يكون الأفضل لى أن أعود فـما عـاد لى من مصـير آخر، لكنـنى لا أرغب فى حياة مـع الغادر ساكن الهيش، طفلى سأحمله أينما أذهب، ولن أعود إلى التيه.

قال البنا: طفلك ليس لك يا وراقة، هو ابن الإثم وابن الآثم.

قالت الوراقة: لا أهتـم من أبوه، لكنه طفلى، وَلن أدعه، فكرت فى الأمر لأيام عديدة، وأظن أنه من الأفضل لى أن أرحل، عندما يبزغ الضياء أحمل طفلى وأرحل إلى حيث أجد الأمان.

قال جاحظ العينين: كلنا كنا نعرف أن الوراقـة اختفت، وكلنا سمعنا صراخها فى الليلة المشئومة، كلنا عرفنا، لكن لم يفعل أى منا شيئاً، عندما كنا ننظر كل فى وجـه الآخر، لم تكن العيـون تعرف اللقـاء، لأن السؤال كان هناك، وكذلك الإجابة، لكننا لم نـكن نريد أن نقول، أن نعترف بأننا نعرف، وأننا هكذا جبناء، وعندما تأتى الوراقـة اليوم لم يعد هناك مفر من الاعتراف، ولم يبق شئ نفعله، فقـد فعلت هى كل ما يجب عندما هربت من التيه.

سكت جاحظ العينين، وساد الصمت لحظات، ونظر إلى أولاده فرأى فى عيـونهم الحب والصفح، اطمأن قلبـه، وقال مرة أخـرى: لعل أخوتى الأن ينظرون إلى اجتماعهم ويعرفون ما يجب عليهم، لكن، وحتى يحدث ذلك يا وراقة، تكونين فى دارى، فى حمايتى.

تعلقت نظرات الأبناء بشفتى الأب وهو يقول ما قال، ونظرت الوراقة ولفها السكون، ثم تطلعت إلى البنا.

قال البنـا: سأبنى لك بناء تبـيتين فيـه الليل، وتضعين فـيه جـسدك المتعب، وتحتضنين فيه طفلك الذى اخـترته، وتصنعين فيه أوراقك لتكسبى من بيعها، حتى يشتد عود الصغير ويساعدك.

قالت الوراقة: ليس لى أرض لتبنى لى داراً عليها، ليس لى مكان فى هذه البلدة.

قال البنا: سـأزيل من نباتات الهيش مـا يصلح مكاناً لبيـتك، الهيش ملك للجميع.

بكت الوراقة: لن أعود إلى الهيش مرة أخرى.

قال جاحظ العينين: فنحن جميعاً نخرج إلى الهيش، ونزيل الحشائش الشيطانية، وبأيدينا فى أسابيع قليلة يصبح الهيش أرضاً صالحة.

قال الابن الثانى: بل ونزرعه بالزيتون.

قال البنا: ويصبح لكل من لا أرض له أرض بالهيش.

قالت الوراقة وقد أخذها الحماس مثلهم: وأحفر بركة أزرع بها نباتات البردى.

وقال النجار ضاحكا: وتربين فيها البط أيضا.

توقفت الوراقة، وعـادت مسحة الحزن إلى وجهها: يبدو هذا كحلم جميل! فهل تفعل ذلك فعلاً؟

قال البنا: أفعل ياوراقة، قلت أفعل ولابد أن أفعل.

نظرت الوراقة فى الأرض، وقالت فى همس: لـيتكم فعلتم ذلك من زمن.

قال جـاحظ العينين وهو يقرب جفنيـه يغطي بعض عينيه الكبـيرتين، وينظر من بينهما، ربما إلى الأزمنة الأخرى التى لم يرها بعد:

ـ كل شئ بأوان.

انطلق جاحظ العينين وأبناؤه والوراقة إلى الهيش، فى الظلام لم يكن هناك من ينظر، أو على الأقل يبدو الأمر كذلك.

قال جـاحظ العينين للبنـا: كيف تنظر الآن إلى الوراقـة؟ أعرف أنك كنت دائماً تنظر إليـها، لكنك تبنى الآن جداراً لها، هل هـذا الجدار أيضاً بينكما؟

قال البنا: أنظر إلى الوراقة، كانت يوماً نسـمة فى حياتى، لكنها الآن بعيدة، تبـعد كل يوم بقدر ما يكبر طفلها، لم أعـد قادراً على الحلم بها، لكنها فى حمايتى، أحميهـا بقدر ما أبعد عنها، أبنى لها الدار الذى تسكنه مع طفلها، وأسهر فى حراستها، لكنها لم تعد لى.

وقال جاحظ العـينين: الوراقة ابنة عمك، لكنهـا لم تعد لأحد، هى الآن لابنها فقط، كلمـا نظرنا إلى هذا الطفل ذكرنا والده، لكن هذا الوالد الغـادر ليس له فى هذا الطفـل الذى لم يذنب بشئ، فـقط تلك الجـدران يجب هدمها.

قال البنا: بل يجب بناءها، لحماية الوراقة وولدها.

كان البنا يريح ذراعه فوق ركبـتيه، ينظر إلى الأفق الأخضر الذى بدا خلف الهيش، عـيناه مفتـوحتان للضـوء الكليل الباقى من اليـوم، وظهره مستند إلى جذع الشجرة التى جلس تحتـها، ساقاه مثنيتان إلى صدره، وفى الضوء الغارب كان الجواد الأسود يطارد فلول الشمس الحمراء.

الغادر

نام الريس فى جلسته ولم يعد ينتظر، وعبس المسلى ولم يعد يبتسم، وسكت ابن الريس وأصبح أكثر كموناً، وتساءل الحكاء وهو ينظر فى الاتجاهات البعيدة:

ـ لكن من هذا الغادر؟ من أين أتى؟

أجاب الحكيم قائلا:

ولد الغادر فى الغفلة.

لم تلده والدة، ولم ينجبه أب.

جاء من صلب الأحلام السوداء، وكوابيس الزمن الكذاب.

لكن الكل تبناه، أرضعته النساء وهدهده الرجال، حتى غافلهم جميعاً، وسرق الخير، وهرب إلى الهيش، ومن الهيش إلى الكوم الشمالى حيث التيه تنقل فى أوقات عدة. من حين لآخر يأتى الغادر للبلدة، يدخل بين سوق الهيش الخضراء الكاذبة، ينتظر اللحظة، يتسلل بين بيوت القرية فى الليل، يجوس فى الطرقات الباردة المظلمة، يسرق طيراً أو أرنباً، ويعود إلى الجبل بحمله.

لم يكن الغادر وحيداً تماماً، كان يجد دائماً من يريده، ولذلك عندما خطف الوراقة كان يعرف أنه لن يكون هناك من يتبعه للبحث عنها، وأنه عندما يرغب سوف يجد من يمنع أخذها منه، لم يظن أنه فى يوم سوف تتمكن الوراقة من الهرب من التيه، فالدهاليز تتقاطع، وتتفرع، ويصعب

الخروج منـها لمن لم يألفـها أمداً طويلاً مـثله، كمـا أن الظلام الدامس فى المكان كان عائقاً شديداً، والخوف ينمو فى الظلام، وكان حريصاً أن يخرج كل يوم فى اتجاه يخـالف اتجاهه السابق لتظل الوراقـة جاهلة أبداً بالطريق، كان يخرج فى الظلمة حافياً حتى لا يصدر صوتاً ينبهها إلى وجهته، ويلف فى الدهاليز عدة مـرات حتى يصيبهـا الدوار ولا تتمكن من متابعـته. متى فقد حذره؟ ربما بعد أن انجبت الوراقـة ابنه، خالجه احساس بالاطمئنان إلى أنها بعـد اليوم لن تحاول الهـروب، فقد كـان يظن أنها تخـاف العودة إلى أهلها والطفل على ذراعها، لكن الوراقة خالفت كل توقعاته.

ولما لم يجدها فى التـيه فى نهاية تلك الليلة خـرج غاضباً، لم يعـبأ بالضوء الذى بدا عند الأفق خافتاً، انطلق إلى دار البدين وطرق الباب طرقاً شديداً.

استيقظ أهل الدار جميعـاً، قال البدين: لابد أن أمراً شديداً قد وقع، فادخلوا إلى حجراتكم وانتظروا فسأنظر الأمر بنفسى.

فتح البدين فرجة من الباب فرأى الـغادر هائجاً كالثور، خرج إليه فى غضب: كيف تجرؤ على المجئ إلى دارى؟

كتم الغادر ثورته وقـال بصوت مكتوم: هربت الوراقة من التـيه تحمل طفلى.

قـال البدين وكـأنما لم يسمـع: كيف تجـرؤ على المجئ إلى دارى أياً كانت الأسباب؟ كان عليك الانتظار بالدار الأخرى حتى آتيك.

بدا الغادر متوسلاً وضعيفاً: طفلى، الوراقة هربت تحمل طفلى.

قال البدين بحزم: اذهب إلى الدار الأخرى حتى آتيك.

انتبه الغادر من ضعفه، ما كان له أن يضعف أبداً، فليس له الضعف، قال الغادر: طفلى، القرية كلها أمام طفلى.

عاد البدين يقول: اذهب إلى الدار الأخرى حتى آتيك.

ـ الآن!!

ـ لن أتأخر عليك، دعنى أبحث حتى أعرف لك مكانها، وسآتيك.

انطلق الغادر إلى الدار الأخرى، (وهى التى أخذها البدين من اللئيم) ينتظر هناك، بينما عاد البـدين إلى داخل داره، تجمع أهله ينظرون ما الأمر فنهرهم ليعود كل إلى ما كان فيه، من نوم أو غيره.

ظل الغادر حبيس الدار الصغيرة ينتـقل بين الحجرات كحيوان حبيس، لم يتـمكن ذلك النهار من النوم، حـتى لاحت فلول اليوم تتـراجع، وبين غبشة المغرب، وظلمة الليل سمع الخطوات تقـترب، قفز يفتح الباب، كان هناك البـدين يتبـعه السـاهى، خار الغـادر كثـور غاضب، وقال بـصوت مبحوح: أين هى؟

قال البدين: من تريد؟ الوراقة أم الطفل؟

دخل الغادر إلى ظلمة الدار، وجلس حيث كان قد وضع أمامه الجوزة والفحم متقداً، قال وهو يشد نفساً عميقاً: أريدهما كليهما.

قال الساهى: لك طفلك، أما الوراقة فليست لك.

قال الغادر: كلاهما.

قال البـدين: أنت تعرف أنها لـيست زوجة لك، إنما هى حـرة حيث تذهب!

قال الغادر: حرة؟ ليس لهـا عندكم سوى القتل، ولم لا تعطونها لى بدلاً من قتلها؟

قال البدين: أما كانت معك؟

قال الغادر بصوت خـافت مبحوح وكأنما يحدث نفـسه: كانت معى، لا أعرف كيف فضلت الموت على أن تبقى حيث وضعتها.

قال ذلك وكأنه يسأل نفسه، ثم التـفت لهما: الوراقة زوجتى، المسألة ليست ورقة زواج وأنتما تعلمان هذا.

قال الساهى: ولا هذه، أنت تعـرف أنك لم تعقد عليهـا، ولم يشهد زواجكما مخلوق!!

ضـحك الغادر سـاخراً: حـقا؟ لم يـشهـد زواجنا أحد؟ كل القـرية شاهدة، كلكم تعـرفون، كلكم باركتم هذا الأمر، بصـمتكم على الأقل، فهى زوجتى، وابنها ابنى، وأريدهما معا.

قال البدين: على كل حال لم نجدها، لا هى ولا ابنك.

قام الغادر واقفا: أتسخران بى؟

قال البدين: اجلس ولا تنفعل، هى موجودة على كل حال، غير أننا لم نعرف مكانها بعد، إلا إن كان أبوها قد دفنها مع ابنها.

قال الغـادر: لا أظن، وإلا لما كان يدور فى القرية وكـأنه يبحث عن شئ ما وهو فى هذه الحالة من القلق.

قال البدين مـبديا الغضب: إذن خرجت، وطفت بالـقرية أيضاً، ألم أقل لك...

قاطعه: لست أحد أخوتك الذين تصدر إليهم الأوامر، ولا تخيل على طرقكم فى تأليف القلوب حولكم، فالعب غيرها!!

قال البدين: هى موجودة بالقرية، ولكن لم نعرف مكانها بعد، سنجدها على أى حال، ولكن فى هذا الوقت عليك أن تنهى أمر شاتل الأرز، فهو يريد إصلاح أرض الهيش وزراعتها.

- الهيش؟ لماذا؟ ألا يكفيه مما لديه من الأرض؟

- بل يفعل ذلك للفقير وعياله!

ضحك الغادر: الفقير؟ وكيف له أن يزرع وهو لم يفعل من قبل؟

قال البدين: المهم الهيش!

قال الغادر متوجها للساهى: لماذا لم تفعل ذلك أنت؟ ألا تريد أرضاً أكبر من أرضك؟

قال الساهى ببطء متجها للبدين: لماذا شاتل الأرز؟ لم يفعل ما يستحق به القتل؟

بهت البدين: أنسيت كل ما كان؟

قال الساهى ببرود: لم أنس، أنت الذى تنسى!!

قال البدين غاضبا: خالف تعرف، هذا كل شئ بالنسبة لك.

قال الغادر: ولم لا تقتلون جاحظ العينين، فهو الذى يقف خلفه؟

قال البدين: ماذا تعنى؟

والتفت إلى الساهى رافعا صوته: هذا ما وصلنا إليه، لماذا يجب أن تفكر فقط فى ما تريد؟

وقف الساهى غاضبا: بل أنت الذى لا تفكر إلا فى مصالحك!!

ـ اخفض صوتك، أتريد أن يسمع الجميع؟

ـ أى جميع، هذه الديار ليس بها أحد، أنسيت؟

ـ بل أنت الذى تنسى، الطالع لم يترك داره!!

بهت الساهى: الطالع؟ كيف؟ ألم تقل أنك ستجعله يتركها؟

قال البدين: لم يقبل بأى شئ، الطالع هنا حتى الآن.

وضع الغادر الجوزة على الأرض وقام واقفا وهو يتثاءب. قال البدين: أين تذهب؟

قال الغادر: أذهب إلى حيث أشاء، عندما تجدان الوراقة ضعا لى العلامة، لن أفعل شيئا حتى أجد الوراقة والولد.

عندما رأى الطالع الغادر يسير سافراً فى طرقات القرية عرف أنه قد حان الأوان.

سار الطالع فى كل مكان، كان يطرق الأبواب ويسأل: أين الوراقة؟

وكما كان الأطفال يسيرون خلفه كل يوم فيلقى إليهم بالتمر الطايب من فوق النخيل، ساروا خلفه اليوم يسألون: أين الوراقة؟

ولكن لم يكن هناك من يجيب.

وفى النهاية صعد الطالع فوق قمة النخلة العالية الواقعة فى مدخل الجبانة، وراح ينظر فى كل الاتجاهات، لكن الوراقة لم تكن هناك فى أية ناحية.

الكافورة قد تخفى الشر كما أخفت الخير من قبل، وقد تحتضن الغادر فى ظلامها كما احتضنت الوراقة من قبل، ولذلك عندما تسلل الغادر فى هدأة الليل إلى دار جاحظ العينين لم يره أحد، وكان الظلام ساتراً.

من نافذة الغرفة الخلفية تسلل، وهناك رأى شبحين نائمين، شبح طفل وشبح امرأة، قال الغادر: من أين المرأة والطفل لهذه الدار؟ هى دار رجال، لم يكن بها امرأة يوماً، فمن أين يأتى الطفل؟

قال الغادر: هذه الوراقة وهذا طفلى.

فى صمت وضع الغادر يديه حول الطفل، حمله فى سكون وهو نائم لا ينبس، وعندما حمل الغادر طفله، فتحت الوراقة عينيها، ومدت ذراعها تتحسس الطفل كما تفعل حين تقلق كل ليلة، لم تجده، وأحست بحركة فى الغرفة، قالت بصوت خافت: من هذا الذى يحمل طفلى فى الليل؟

لم يرد الغادر، وإنما اتجه نحو النافذة، قفزت الوراقة إليه وأمسكت بجلبابه: دع طفلى.

قال الغادر: تريدين الطفل تعالى معه!!

قالت الوراقة: لا آتى، لا أنا ولا طفلى، دعه لى.

قال الغادر: بل هو طفلى، لا أدعه أبدا.

قالت الوراقة: لو أخذته سآتى بأعمامى والقرية كلها إلى حيث تخفيه، وسوف يكون الأمر عسيراً.

ضحك الغادر ساخراً: لن يأتى أحد، أما زلت تأملين فى أن يغيثك أحد منهم؟ لم لا تذكرين يوم صرختك، يوم لم يتحرك أحد بحثاً عنك؟

قالت الوراقة: سأقتلك، وسآخذه!

قال الغادر: عليك أن تحاولى، وعلى أن أحاول ما أريد.

دفعها بعيداً عنه، وغادر المكان.

فى الصباح كانت الوراقة جالسة وقد كشفت شعرها وحلته، جاء جاحظ العينين وأولاده، قال لها: أين الطفل ياوراقة؟

لكن الوراقة عادت إلى الصمت.

قامت الوراقة تريد الباب، قال البنا: إلى أين يا وراقة؟

خطت إلى الباب، صاح البنا: لا لن تخرجى، لا نريد لأحد أن يراك.

قال جاحظ العينين: دعها تخرج، الكل يعرف أنها هنا، الكل يعرف، حتى أنهم أخذوا طفلها، دعها تخرج ولنر إلى أين تتجه.

خرجت الوراقة فى الشمس الصاحية والنور يملأ الدنيا، كل من رآها وقف، فقط الفقير جرى نحو دار أبى البنات ليخبره، شاتل الأرز كان متجها إلى حقله، فوقف، البدين كان متجها إلى حقله فوقف، الساهى كان متجها إلى حقله فوقف، كل من رآها توقف.

قال الساهى للبدين هامساً: ها هى تخرج بكل جرأة.

قال البدين: فقدت ولدها.

قال الساهى: فماذا نفعل؟

قال البدين: دعها، ماذا يمكنها أن تفعل؟

قال الساهى: ألم أقل لك دائما أنك لا تقدر الأمور؟

قال البدين: بل أقدرها تماما، انتظر فسوف يكون هناك من يتولى أمرها، لا تقلق، والأفضل أن نتجه إلى حقولنا، حتى لا نشهد شيئا.

تجمعت القرية كلها تسير حول الوراقة، جاء أبو البنات يحمل فأسه، ربما كان ذاهباً إلى حقله، اتجه إلى الوراقة وهو يراها بعين كليلة، لقد اسودت الدنيا أمامه ولم يعد يرى، قال: أين كنت ياوراقة؟

لم ترد الوراقة، لم تلتفت إلى أى إنسان، حتى والدها لم تلتفت إليه، عاد يقول: لم تذهبى حيث طلبت منك، فأين كنت؟

ما كان من الوراقة سوى الصمت، قال أبو البنات والكل يسمع قوله: بحثت عنك طويلاً، فأين كنت؟

لم تنفرج شفتاها عن صوت، كانت وكأنما لا تسمع أحداً، قال الأب الحزين: فأين تبغين الآن؟ تعالى إلى الدار لنتحدث!!

كانت الوراقة تتجه إلى التيه، وعندما تيقن كل واحد أنها تتجه إلى التيه بدأوا ينفضون، قال البدين: على أن أسقى اليوم.

وانصرف.

وقال الساهى: نضجت حبات البسلة على الفروع، ويجب أن أجمعها اليوم.

وانصرف.

وقال وارث العباءة: لقد اقتربت صلاة الضحى يا رجال.

وانصرف، ومعه انصرف الكثيرون.

فلما اقتربت من مدخل التيه لم يكن هناك سوى جاحظ العينين والبنا، وأبو البنات.

توقف أبو البنات لحظة، وتوجه إلى الوراقة: أين تبغين يا ابنتى؟

قالت الوراقة وهى تبحث بعينيها فى أركان العالم حولها وبعيدا عنها: أبحث عن ولدى.

قــال أبو البنات حـــزينا: ليس لك ولد يا ابنتــى، هو ابن الإثم وابن الآثم.

قالت الوراقـة فى صيحـة ألم: هو ولدى، أتى من رحمى، حـملته وولدته، وأرضعته.

لم يتمالك أبو البنات نـفسه عند هذا القول، فى لحظة لم ينتبـه إليها الآخران كان قـد رفع يده بفأسه وهوى على رأس ابنته، وقـال فى فرحة: أخيراً غسلت عارى.

تهـاوت الوراقة على الأرض، واندفـعت الدماء غـزيرة من رأسهـا، تناثرت على الأرض والصـخور والنباتات البـرية القليلة الغريبـة هناك عند مدخل التيـه، وقف جاحظ العينين يشـهد صامتاً، والبنا صـاح وهو ينتزع الفأس من يده: كيف تجرؤ؟

قال أبو البنات تاركاً البنا يأخذ الفـأس من يده وقد ملأه الألم: تعرف أنها جلبت لى العار.

جلس البنا على ركبتيه، يقلب فى الجسد الذى ساده السكون والموت، قال البنا حزينا: قتلتها!!

نظر البنا إلى أبيها، وقال يكبح الغضب: ماتت الوراقة، قتلتها!!

لم يجب أبو البـنات، جلس إلى جـوار البنا أمـام الوراقـة، وبكى، وضع رأسه بين يديه، وبكى، قال: مـا كنت أتمنى أن أفعل، لكنها جلبت لى العار.

حـمل البنا الوراقة بين يديـه، عائداً إلى القـرية، ووراءه سار جـاحظ العينين، صـامتاً صـمت الزمن الغادر، سـاكناً سكون الموت، لا ينظر إلى شئ، وأبو البنات مـتهدل الكتـفين، ينظر إلى الجثـة يحملهـا البنا، ذراعاه متهدلتان إلى جانبيه، ولا ينبس.

عاد الناس يتجمعون، عندما وصل البنا إلى الساحة عند الجرن، كان الجمع قد أصبح كبيراً، الجميع يأتى، يتقاطرون من كل ناحية فرادى، والصمت لا يقطعه أحد، كما صمتت الوراقة يصمتون الآن.

نزل الطالع من أعلى النخلة وسار يسأل: أين الوراقة؟

ذهب باتجاه التيه مثل الباقين يمد يديه، يحاول أن يوقفهم ليسألهم: أين الوراقة؟

انزوى اللثيم مرتعشاً، وقال: تعال يا أخى، لا تسأل.

أخيراً جاء البدين، نظر إلى البنا يحمل الوراقة، وارتعد حزيناً، قال البدين: ما هكذا كنا نريد أن نرى الوراقة أبدا.

جاء الساهى، وقف أمام البنا وهو يحمل الوراقة، وقال: أحسنت يا بنا، غسلت عارنا.

نظر البنا مذهولاً وقال: لست أنا.

قال أبو البنات وهو يكتم ألمه: أنت ابن عمها، وقد كانت موهوبة لك، وهذا حقك.

عاد البنا ينظر إليه: لست أنا!!

جاء وارث العباءة، قال بهدوء فى صوته القوى: هذا ما كان ينتظر من البنا، رجل وابن رجل!!

صرخ البنا: لست أنا!!

جاء الطالع، وارتعد قائلا: قتلت الوراقة يا بنا؟؟

بكى البنا قائلاً: لست أنا، لم أقتل الوراقة أبداً، لست أنا.

أمسك جاحظ العينين بذراع البنا: لا تدفع عن نفسك الآن، فقد انتصر الزور، والحق لم يعد يرى.

قال شاتل الأرز: فمن الذى فعل؟

قال البدين: ولم لا تكون أنت؟

قال الساهى: فمن قتل الوراقة؟ كنتما معها كلاكما!

قال شاتل الأرز: ألم يكن أبو البنات أيضا معها؟

قال وارث العباءة: لا يهم كل هذا الآن، هيا بنا لنلقى بها إلى الترعة.

قال جاحظ العينين: بل ندفنها فى التل الغربى.

قال وارث العباءة: هل يدفن العار فى أرض الطهرة البررة؟ لا يصلح هذا أبداً، ألقوا بها إلى الترعة.

قال البنا: سأدفنها فى مقبرة أمى.

قال وارث العباءة: قلت تلقى فى الترعة ولا تدفن أبداً فى مدافننا.

اتجه البنا حاملاً الوراقة نحو الغرب، لكن الرجال الذين يخافون الله ويخشون العار والدنس أقبلوا عليه وأوقفوه.

قال جاحظ العينين حزيناً ومتألماً: دعوا الأمور تمضى مرةً واحدةً، هل لا بد أن يشهد الجميع خلافكم حتى فى دفن موتاكم؟

قال وارث العباءة: لا خلاف إلا منك وابنك يا جاحظ العينين، لقد سمع الجميع ما قلت، وستلقى جثة الوراقة فى الترعة.

قال جاحظ العينين للبنا: اتركها لهم، اتركها لأبيها الذى قتلها.

قال البنا: لا أتركها، وسأدفنها فى مقبرة أمى.

قال أبو البنات: كنت أتمنى دائماً أن أكون أنا قاتلها، والآن لا مفر لى من أن أضعها بنفسى بين يدى الترعة لكى لا يكون لها قبر يزار.

قال وارث العباءة: هكذا قـال لنا الوالد رحمه الله، لا تدفنوا الآثمين فى تربة أسلافكم.

حمل الأخوة الوراقة إلى الترعة، وضـعوا الجسد الساكن فى الكفن، وبين كفى الترعة وضعوها.

سار الكفن على صفحة الماء طافياً، يحوى الجسد الذى كان يملأ القرية بالأمس، سار طافياً فى وسط الترعة.

وعلى البر وقف الطالع يناجيه:

"ع البر يا طالب الدفنة."

وعند كل قرية سار أمامها، وقف الناس على الشاطئين يناجونه:

"ع البر ياطالب الدفنة

ع البر ياطالب الدفنة"(*)

لكن الجـسد حـبـيس الكفن لم ينح نحـو أيٍ من البـرين، وإنما ظل سائراً، يبغى هدفاً لا يعرفه أحد.

(*) هكذا يقول الفلاحون المصريون منادين أى جثة مجهولة ملقاة فى النيل أو الترع.

طعم الموت

ما طعم الموت؟

ما طعم خروج الروح من البدن؟

كل إنسان له طريقته فى الحياة، وستكون له طريقته فى الموت، الموت هو الإبداع الأخير الذى ينجزه كل منا، وكلٌ بطريقته الخاصة جداً، وهذا هو ما يكمل مفتاح شخصية الإنسان منا، يظل هناك عنصر غامض فى شخصية المرء حتى تكتمل إبداعاته بهذا الإبداع الأخير.

هكذا سأل ابن الريس.

وهكذا أجاب الحكيم.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٨٠٨ / ١٩٩٩



❖ 03 ❖

فى كتابة سحر توفيق حس أخلاقى ماثل دوماً، لكنه متوار كأنه السر الذى يجب كشفه و معرفته ، و الإنصات إلى صوته النحيل . إنه ـ هذا الحس ـ كامن فى الفضاء التفاعلى للشخوص ، و فى تنظيم الزمن ، و متانة التركيب النحوى و وضوح حدوده ، و فى معجم لغوى متوازن برهافة بين الدقة و الصحة ، فلا يجور أحدهما على الاخر ، لا يميل الميزان فى ناحية ، ذلك أن الكتابة تعنى التساوى ، ألا يميل الميزان فى ناحية ، لأن الحياة فضاء للظلم و العدل ، و الموت والحياة، و الذكورة و الأنوثة ، و هو فضاء يأخذ الحياة إلى ما هو كامن فيها بدءاً ، قبل أن توجد ـ هذه الحياة ، أعنى الاستمرار و الإعمار، وخلافة الكائن لله فى أرضه .

من أجل هذا تنأى هذه الكاتبة عن الواقع الغفل الصلب ، برغم أنها تبدأ منه ، أو على الأقل من فكرة ما عنه ، لتصل إليه ، إلى ما تظنه جوهره الحق الناصع الذى لا اختلاف عليه ، كان الكاتب حارس لهذه الغاية ، يجلوها ، و يبعد عنها أى غيوم تموه على صفائها .

لعل هذا يجعل سحر توفيق تحرص على غنائيتها التى لا تبرز على نحو حاد ، إنما تبطن السرد ، و تنغمه ، و تسهل انزلاقه ، فنشعر ان السرد يحتوى على قصته ، على سرده بوصفه حكاية ، و أنه وثيق الصلة بالحواديت ، و تعدد الرواة ، وتوالد الحكايات من بعضها البعض وثيق الصلة بالطقس ، و الحكايات الأولي ، البعيدة .

فضاء عذب يأخذنا بعيداً عن الواقع ، لنعود منه و نحن أقدر على التحديق فى هذا الواقع و امتلاكه .

د. محمد بدوى

